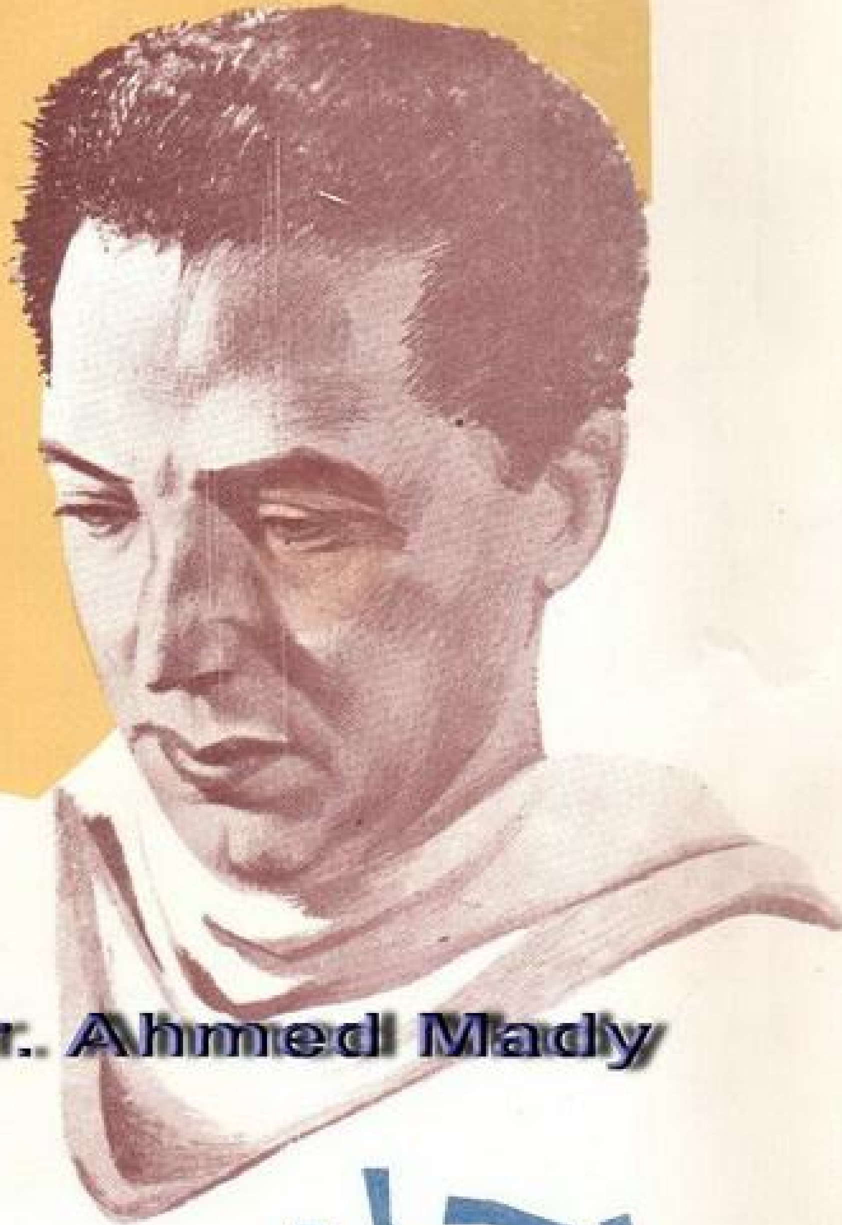
مصطفى محمود



رجل تحت الصفر

دار المعارف

هذه المجموعة

تحرص دار المعارف دائما على تقديم الأعمال الكاملة لكبار المفكرين والأدباء. والدكتور مصطفى محمود واحد من هؤلاء الذين أخلصوا للقلم.. فأثرى ساحة الفكر والعلم.. وطَرَقَ أبوابًا جديدة لم تفتح من قبل.. فتنوع إنتاجه بين القصة والرواية والمسرحية وأدب الرحلات.. إلى جانب تلك المؤلفات التى تحفل بالنظرات المعاصرة للفكر الدينى والمقارنة بالنظرات العلمية الحديثة.. والتى لاتزال تثير مزيدًا من الجدل المفيد..

وقد امتد تأثير فكر الدكتور مصطفى محمود إلى القراء العرب من الخليج إلى المحيط كما ترجمت بعض أعماله إلى اللغات الأجنبية شاهدة بقدرته على العطاء المتميز المتنوع.

مصطفى محمود

رجل تحت الصفر

الطبعة السادسة

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا

دار المعارف

الفصل الأول

القاهرة صباح السبت أول يناير عام ٢٠٦٧ .

فى صاروخ متجه من القاهرة إلى لندن .

فى مقعدين متقابلين جلس الدكتور شاهين والمهندس عبد الكريم ، كل واحد منهما يبدو كأنه نسخة من الآخر ، وكأنهما توءمان مع أن أولهما مصرى والثانى عراقى . وكذلك كان كل ركاب الصاروخ نسخاً متشابهةً من صورة واحدة وكأنهم إخوة أشقاء مع أن كل واحد من جنسية مختلفة .. خليط من إنجليز وفرنسيين وأمريكان وروس وصينيين ويابانيين وهنودوأندونيسيين وسنغاليين وإسكيمو . نعرف ذلك من الأسماء لأن أحداً لا يحمل « بسبورت » عليه إشارة بجنسيته أو بلده ، كل ما تحويه بطاقة السفر من معلومات هى الاسم .. والسن .. وفصيلة الدم .. ورقم البروتين .. والمكافئ المغنطيسى .. والمعادل الكهربائى .. والحمولة

العصبية .. مجرد شفرة جبرية ورموز وأرقام .. هى كل الدلالة على شخصيته .

التفت الدكتور شاهين من نافذة الصاروخ إلى السحاب الذى يتطاير كقطن مندوف وقال متثائباً :

– مضت ثلاث ثوان وربع على قيام الصاروخ .. لقد بدأت أشعر بالملل .

ومصمص بشفتيه ..

– لا أفهم كيف كان أجدادنا يحتملون ساعات من السفر فى طائرة تسير بمحرك .. سلحفاة لكعة تقطع الكيلو متر فى دقيقة .. تصور الفظاعة !

–كانت على أيامهم هى الإكسبريس الطائر .

– وكل مائة ألف كيلومتر تنزل لتملأ خزاناتها بالبنزين .. بنزين .. ؟ تصور طائرة تملأ خزاناتها بنزيناً (وقهقه ضاحكاً) .

– البنزين الذى لا يعجبك كان هو الذهب السائل فى تلك الأيام .. من يملك البنزين كان يملك العالم .. البدوى الفقير الذى كان يعثر على بئر بترول كان يتحول بقدرة قادر إلى مليونير .. كانوا تلك الأيام يحفرون الأرض بأظافرهم لاستدرار هذا الطفح والعطن بأى سبيل .

– لو أنهم بعثوا الآن من قبورهم ليروا هذا الذهب الأسود

الذى عبدوه ملقى فى مزبلة واحدة مع الفحم والحطب والقوالح .

– من حسن الحظ أن أحداً لا يبعث من قبره .

وبعد ثانية أخرى .. كان الاثنان يسيران فى ريجنت ستريت بلندن والجو صحو .. والشمس ساطعة .. لا أثر لذلك الجو الرمادى الذى عرفت به لندن على مر العصور ، فقد تمّ تكييف جوّها .

قال الدكتور شاهين وهو يدخل فى نفق ضيّق ثم يستقل قطاراً ثعبانيًّا أملسَ بلا عجلات :

– ميعاد محاضرتى فى الجامعة بعد دقيقة وعشر ثوان .. أرجو ألاّ يسرقنا الوقت .

– اطمئن . هذه الزاحفات التى تسير بالمغناطيسية الأرضية سريعة جدًّا .. وستصل قبل ميعادك .

وجذب الباب خلفه ..

وما لبث أن ارتفع صفير خافت .. وانزلقت المركبة الدودية فى النفق كأنها قذيفة . وألقى الدكتور شاهين رأسه على المقعد وأغمض عينيه فى إغفاءة قصيرة ..

والحقيقة أن الجوّ كان يغرى بالاسترخاء والنعاس .. كانت المركبة متوازنة جدًّا لاتكاد تهتزّ شعرة برغم سرعتها .

وكانت المقصورة مكيفة الضغط والهواء والرطوبة .. وفى الهواء عطر شانيل خفيف منعش وأنغام موسيقى خافتة تنساب من بوق عند

رأس المقعد .

- ميزة هذه المركبة أنها خلّصتنا من عطلة المرور والإشارات . . فلا يوجد عابر سبيل فى النفق الأسطوانى غيرها .

ونظر عبد الكريم إلى ساعة يده ثم هز زميله النعسان برفق :

- لقد وصلنا إلى الجامعة .

وكانت الزاحفة قد توقّفت تماماً ، وبدأت المقاعد تتحرك فى حركة رأسية كأنها مصاعد أوتوماتيكية يصعد الواحد تلو الآخر إلى سطح الأرض حيث ينزل الراكب بسرعة ويتجه إلى سبيله .

ومد الدكتور شاهين يده إلى زميله مودّعًا :

- نلتقى بعد ساعة فى الكافتيريا .

وانطلق مسرعًا إلى قاعة المحاضرات .

كان هناك أكثر من ألف طالب .

وكان مايلفت النظر ذلك التشابه الشديد بين وجوههم وكأنهم إخوة أشقاء (نفس الملاحظة التى لاحظناها فى الصاروخ) .

وبسط الدكتور شاهين خريطة كبيرة من النايلون الملون على فانوس وهو يقول :

- كانت هذه خريطة العالم منذ مائة سنة . هذه الخطوط التى ترونها كانت فواصل وحدوداً إقليمية تقسم العالم إلى دول ودويلات ، وفى الحقيقة كان العالم ينقسم إلى قسمين كبيرين :

دول ذات سيادة تريد أن تسود أكثر .. ودول نامية متخلفة تكافح لتعيش ولا تعرف كيف تعيش .. وكان الصراع يدور بين الاثنين كما كان يدور بين الدول تنازعاً على القوة والسلطة ..

أين وقفنا فى كلامنا فى المحاضرة السابقة ؟

لقد تكلمنا عن روسيا والصين وأمريكا .. والعلاقات المعقّدة بين سياسات الثلاث .. وأختصر القصة اليوم فأقول : إن الحرب العالمية الثالثة قامت فى الثامن من أغسطس سنة ١٩٩٩ بين أمريكا وروسيا ، وما لبثت أن تحولت إلى التحام ذرى . . ووقفت الصين على الحياد وقالت : إنها لا تستطيع أن تشترك فى جريمة إفناء الجنس البشرى .. وقالت : إنها ستحاول أن تكون رسول سلام .. وهو موقف يثير التساؤل .. وبالتفسيرات القديمة التى تعلمناها والتى كانت تقول لنا : إن صراع الطبقات كان دائماً القوة المؤثرة التى شكلت التاريخ ، يبدو هذا الصراع بين الصين وروسيا معادلة صعبة غير مفهومة ، فلا شك أنه قوة مباشرة شكلت تاريخنا الحالى ..ومع ذلك فهو لم يكن أبداً صراعاً طبقيًّا (بروليتاريا وبروليتاريا .. أين الطبقات ؟) .. وربما كان صراعاً عنصريًّا .. ربما كان فى طياته صراعاً نفسيًّا يعكس شيئاً فى نفوس الشعبين ..

على أى حال يبدو أن العامل الاقتصادى كان فى مرحلة التاريخ القديم من القوة والغلبة بحيث إنه كان يسير التاريخ فعلا ، وكانت

العقائد والفنون وحتى الحالات النفسية للأفراد والجماعات تبدو كأنها مجرد ردود أفعال للحالة الاقتصادية .. ولكن فى مرحلة تالية تغيرت الأمور بسرعة ، ورأينا التاريخ تقرره أشياء فى نفوس الناس ، وليس مجرّد تصارع بين طبقاتهم .. والظاهر أن الطبيعة البشرية مركبة ومعقّدة أكثر مما تصور الفلاسفة القدماء ، وأن التفسير الواحدى للإنسان والتاريخ جميل ولكن فيه تبسيطاً مخلاً بالحقيقة .

ونحن نقول الآن : إن هناك أشياء فى نفوسنا نتعارك من أجلها ، كما أن هناك أشياء فى الخارج نتعارك عليها .. وأن العامل الاقتصادى والعامل النفسى يشكلان معاً كل موقف نتخذه ..

ولو أننا قلنا هذا الكلام منذ مائة عام أيام أجدادنا دراويش الماركسية (أئمة المادية الجدلية فى ذلك الوقت) لحاسبونا حساب الملكين . لكن هناك أشياء كثيرة تغيرت فى الدنيا ، وغيرت معها عقول الناس بأسرع مما توقع جميع المفكرين .

ونعود إلى كلامنا لنحكى بقية المأساة ..

الحرب ذاتها لم تستمر أكثر من أيام معدودة ..

فى الثامن من أغسطس سنة ١٩٩٩ اشتعلت ، وفى الحادى عشر من الشهر نفسه ، وضعت أوزارها بعد خراب مدن وموت ملايين ، وبعد هبوب عواصف وزوابع ، وهطول سيول وحدوث فيضانات ، جعلت الاستمرار فى أى شىء مستحيلا .. فقد

اضطرب حزام الأيونوسفير حول الكرة الأرضية نتيجة الإشعاعات الفجائية المتولدة عن التفجير الذرى ، وأدّى إلى زوابع كهربائية مغناطيسية أشعلت الأرض كلها .. وكادت الأرض كما قال الفلكى الهولندى (زولينجر) تخرج عن مدارها .

ومر شهر من الهول ..

كانت السماء تعوى وتعتصر نفسها فى سيل يكسح ويمسح الأخضر واليابس .. والصواعق تنقضّ كحراب من نار ، فتطعن وتطعن ، وتشعل الحرائق وتهلك غابات بأسرها ، وتسويها بالأرض .. ثم فجأة بدأ الهدوء .. هدوء كالموت ..

وقالوا حينئذ .. شكراً لهذه السيول ، فقد أذابت معها كل الإشعاعات الضارة وخلصتنا منها .. ولكن كان هناك شىء يختمر فى هدوء ملعون فى هذه العجينة الرخوة من الطين والماء والدم والروث والجثث والعفن والدود والرمم ومخلفات الإشعاع .. شىء ملعون بدأ يفصح عن نفسه ببطء فبدأت تظهر حالات غريبة .

مرض أشبه بالطاعون ، ولكنه ليس بطاعون .. ظهر فى حالات متفرقة .. ثم بدأ يكنس الناس ، كأنهم ذباب ، يتساقطون أمام رذاذ غير مرئى .. يشمونه فينتفخون ويتورمون ثم ينفجرون كأكياس نتنة ، تنشر ذلك الرذاذ غير المرئى من جديد .

ظاهرة غريبة صاحبت هذا المرض .. لقد ساوى فى دِقّة غريبة

بين كل الناس ..

لم يترك مدينة .. ولم يدع قرية .. ولم يعف دولة . من أقصى القطب الشمالى لأقصى القطب الجنوبى ، عبر خط الاستواء .. ومن أقصى الشرق لأقصى الغرب ، عبر جميع خطوط جرنتش .. ومن طالب السوربون إلى الزنجى البدائى .. لا يوقفه برد ولا يصده صقيع ولا يرده لهيب .

ولأول مرة فى تاريخ البشرية وقف البشر جميعاً أمام منجل يساوى بينهم كأسنان المشط ، ويحصدهم جميعاً فى عدالة مروعة .

ولأول مرة فى تاريخ الإنسانية الدامى جمعت الناس أخوة ليست أخوّة خطب وشعارات ، ولا أخوّة شعر ومجاز .. وإنما أخوة حقيقية لا تفرقة فيها .. أخوة الألم والعذاب والموت ..

أخوة العجز ..

لأول مرة أدرك طالب السوربون أنه لا يفترق كثيرًا فى عمله عن الزنجى البدائى .. وأدرك الأمريكى أنه ليس أغنى من الروسى .. وأدرك الروسى أنه ليس أكثر صواباً من الصينى .. وأدرك المستعمر فى كل مكان أنه ليس أحق ببلده من صاحبه .. وأدرك المسيحى أنه لن يختص بالجنة دون البوذى .. وأدرك القاضى أنه ليس أكثر عدالة من المجرم الذى يحكم عليه ..

الجميع يتجرعون العلقم .. الجميع يهلكون .. الجميع لهم

الجحيم . وفى توبة حقيقية ، وندم مجنون واعتذار دامٍ ارتمى الجميع فى أحضان بعضهم البعض يقبلون بعضهم وهم يموتون . منظر لا يمكن أن يبرح ذاكرة هؤلاء الذين شاهدوه .

وفى انطلاقة متوحدة صافية أخوية ، انطلق العلماء من جميع الأجناس ، ومن جميع النحل والملل يشتركون فى بحث مخلص مشتعل لمعرفة الداء والتماس طريقة للنجاة .

وبدأت آهات المحبة وحشرجات التصافى والود ، وعهود الوفاة الصادق تتردد فى الظلام الموات ..

ولأول مرة فى عمر الكرة الأرضية الذى يبلغ ستة آلاف مليون عام ، أشرق صباح الأحد من يناير عام ٢٠٠٠ على العالم ، وقد توحد بالفعل فى دولة واحدة .. وقد اختفت الحدود الجغرافية بين البلدان ، وتوحّدت الحكومات فى مجلس عالمى ، وميزانية واحدة مرصودة جميعًا لهدف واحد هو البحوث العلمية فى سبيل القضاء على الموت الزاحف الذى يهدد بالفناء الحقيقى حياة الإنسان فى كل مكان .

كل القوات العسكرية حُلّت . وأصبحت جيوش عمل مجندة فى سبيل خدمة العلماء .. وكل قوى البوليس والتخابر والتجسس تحولت إلى قوى للتجسس على الميكروب واعتقال الوباء .. والسجون فتحت أبوابها ليشترك نزلاؤها فى العمل المحموم فى سبيل

الحياة .. والعقول تكتلت كلها فى جبهة واحدة تهاجم الموت فى جميع معاقله ..

ولكن الموت ظل يطعن فى الظلام .

وفى كل مرة يهرب القاتل الخفى .. وينفذ من جميع المرشحات فلا يبقى له أثر تحت الميكروسكوبات الإلكترونية ، وأمام مجسّات الفحص الكيميائية الدقيقة ..

كان واضحاً أنه كائن بالغ الدقة ، متناهى الصغر .. وأنه من فصيلة الفيروس .

وما كادت نهاية يناير عام ٢٠٠٣ تأتى ، حتى كان العالم الهندى (راجامنون) قد حقق أول خطوة فى المعجزة ، فاستطاع أن يزرع هذا الفيروس اللئيم فى أجنة الثعابين .

واكتشف (راجامنون) أن هذا الفيروس هو فى الحقيقة جزىء واحد من بروتين DNA البروتين النووى المعروف فى نواة الخلية الطبيعية ولكن فى شكل متطور من أشكاله .

وأن هذا الفيروس يستطيع إذا اخترق الخلية الحية فى الغشاء المخاطى للأنف أو القصبات الهوائية أن يحول الجسم إلى معمل مكرس لخدمته وتكاثره ، وبهذا يتحول الجسم إلى أورام طاعونية هائلة تنفجر ليخرج منها ملايين وبلايين الفيروس لتنتشر فى الهواء ، وتنشر الموت من جديد . والجسم لا يستطيع أن يميز بين الأوامر

الصادرة إليه من الفيروس ، وبين الأوامر الطبيعية التى تصدر إليه من خلاياه .. لأن الفيروس من نفس مادة DNA التى تتألف منها نواة خلايا الجسم الطبيعية ، وبهذا يقضى الجسم على نفسه بنفسه دون أن يدري .

إنه فيروس أشبه بقائد الكتيبة .. يلبس لبس قائد الكتيبة . ويتنكر فى هيئته . ولكنه فى الحقيقة قائد من قواد العدو .. ولا يستطيع الجند أن يكتشفوا حقيقته . وتكون النتيجة أن يأتمروا بأوامره التى يكون فيها هلاكهم .

واكتشف (راجامنون) أن هذا الفيروس قد تم تخليقه نتيجة فعل الإشعاع الذرى فى مزيج الدم والطين والعفن .

وفى اليوم العاشر من فبراير فى العام نفسه استطاع الطبيب الصينى (هسيانج وى) بتمرير الفيروس وزرعه فى بيض الثعابين تحت ظروف خاصّة من الحرارة والحموضة أن يستخرج منه لقاحاً واقياً مثل لقاح الجدرى (كما يحدث فى زرع فيروس الجدرى فى البقر) ...

وأثبت اللقاح الناتج أنه يولد حصانة دائمة ضد المرض .

وهكذا أمكن وقف الموت الزاحف . بعد أن كان قد التهم أكثر من نصف التعداد البشرى (ألف وخمسمائة مليون وفاة فى ثلاث سنوات) .

وخرج العالَم من المحنة وقد نجا من فناء أكيد .

وأهم من هذا أنه خرج وقد تطهّر . طهرته الآلام العظيمة ، ووحّدته أخوة المصير والعذاب أمام الموت . وحققت له حلم الساسة والفلاسفة الذى عجز أن يحققه السلاح .. حلم العالم الواحد والحكومة الواحدة . حيث كل الموارد مكرسة لخدمة الجميع فى أخوة حقيقية ، وحيث الكل يعمل فى محبة قدر طاقته ويأخذ بالمحبة قدر حاجته .

قامت الاشتراكية أخيراً على أساسها الصحيح .. ليس بحتمية الاقتصاد وحدها .. وإنما بحتمية الحب ، وبتوافر العامل النفسى الذى يجمع القلوب والأيدى على العمل المخلص البناء .

وفى سنوات عشر كان العالم الجديد قد بدا يقوم من العدم . تكاتفت ملايين الأذرع لتحقق المستحيل ..

حولت الطاقة الذرية إلى قنبلة خيّرة تنشر النعمة فى كل مكان . تقلب مياه البحر المالحة إلى مياه عذبة ، وتروى الصحارى وتحفظ الغذاء بدون تثليج ، وتمدّ الإنسان بسبل مواصلات هائلة السرعة ورخيصة التكاليف ، وتقدم للمواطن وقوداً سهلا أنظف من البترول وأقوى منه آلاف المرات .

أمكن باستخدام هذه الطاقة الجديدة تكييف جوّ المدن . وإنزال المطر فى الريف .. وإحداث الرطوبة والجفاف على حسب

الطلب .. واستنباط فواكه جديدة وخضروات جديدة .

وفى سنة ٢٠٢٥ كانت إشارات المرور قد أصبحت إشارات أتوماتيكية ومعلقة فى الهواء . لأن كل المواصلات أصبحت مواصلات هوائية .. صواريخ .. وقذائف وأقمار .

وفى سنة ٢٠٣٦ أمكن ثقب الأرض واستحداث مواصلات (تحت أرضية) تتحرك تلقائيًا بالجاذبية الأرضية . وبدون وقود فى أنفاق أسطوانية خاصة تصل بين القارات بأسرع مما تستطيع أى مواصلة هوائية أخرى .

وفى سنة ٢٠٣٧ نزلت أوّل سفينة فضائية على المريخ . ومعها طاقم كامل من الأطباء والكيميائيين وعلماء الكهرباء والذرة والزراعة والصناعة .

وفى سنة ٢٠٤٨ تم تثليج الإنسان وتعليبه وحفظه ثلاثة أشهر كاملة أوقفت فيها جميع عملياته الحيوية ... لا تنفس ولا نبض ولا تغذية ولا هضم ولا تمثيل ولا إحساس .. بيات شتوى كامل . موت صناعى وذلك بتبريد الجسم إلى درجة الصفر المطلق (٢٧٣ درجة تحت الصقيع) وهى الدرجة القصوى التى تتوقف عندها حركة الذرة وهى فى ذات الوقت أبرد درجة معروفة فى فضاء الكون .

وأمكن بعد ذلك إعادة هذا الإنسان المجمّد إلى الحياة بتدفئته

التدريجية إلى حرارته المعتادة ، ودون أن يفقد كثيراً من خصائصه الحيوية فيما عدا فقد محدود فى ذاكرته .

وقد اعتبر هذا الحدث العلمى أكبر انتصار سجله الإنسان فى سفريات الفضاء .. لأنه يستطيع بذلك أن يتغلب على مشكلة شحن مقادير هائلة من الطعام وغاز الأكسجين .. ويستغنى عنها بأن يتجمد فى بيات شتوى طوال الرحلة لا يأكل ولا يشرب ولا يتنفس .

كما أن هذا التبريد الشديد حلّ مشكلة أكثر الأمراض المستعصية وأصبح موضة جديدة عند العشاق بدلا من الانتحار يدخل الواحد منهم فى ثلاجة لمدة شهر ثم يخرج إلى الحياة وقد نسى ماحدث من خيانة حبيبته وخداعها (ضحك من الطلبة)

وهنا ارتفع صوت ناعم يقاطع المحاضر :

– هل تعتقد يادكتور أن هناك عشّاقاً فى هذا العصر ؟

– نعم ياروزيتا .. للأسف هذا هو الشيء الوحيد الذى لم يتطور .. فقد تطورنا فى عقولنا وأخلاقنا وحياتنا المدنية . ولكننا لم نتطور كثيرًا فى مشاعرنا نحوكم .

وهنا قالت (روزيتا أحمدولنا) فى نبرة مشحونة بالعاطفة :

– أستاذ شاهين هل تسمح لى بتصريح ..

– تفضلى ..

قالت (روزيتا) بصوت حاولت بقدر استطاعتها أن تخفى اضطرابه :

- أستاذ شاهين .. أنا أحبك .

وتضرج وجه الدكتور شاهين بحمرة دموية وتردد قليلا وهو يقول :

كذلك . كذلك . كذلك . كذلك .

ترددت الهتافات فى كافة أنحاء المدرج ..

- حسنا .. نعود إلى كلامنا .. سنة ٢٠٦١ .

وهمست روزيتا وهى تنظر إليه فى هيام وتحدث نفسها بنبرة خافتة (وسنة ٢٠٦١ ياحبيبى) .

- وفى سنة ٢٠٦١ خطا الإنسان أكبر خطوة فى سبيل فضّ طلاسم الطاقة . فقد تمكنت عالمة الطبيعة الأندونيسية (تماوا) من تحطيم النيوترون وهى قلب النواة فى الذرة ومستكن أسرارها .. وكانت الطاقة الناتجة من العِظم لدرجة أن الجزيرة التى أجريت عليها التجربة اختفت فى المحيط مع أن كمية المادة التى فجرتها (تماوا) كانت أصغر من رأس دبوس .. ومعنى هذا بالحساب البسيط أن نصف قرص أسبرين إذا تم تفجير مافيه من نيوترونات يمكن أن يشق الكرة الأرضية نصفين كما نشقّ نحن برتقالة على الغذاء أو يمزقها إلى عدة أقمار صغيرة تدور فى الفضاء

وكانت المشكلة بعد هذا الاكتشاف هي كيفية التحكّم فى هذه الطاقة واستئناسها .. كيف نستعملها فى دفع صاروخ أو إدارة محرك أو تسخين فرن .

فشلت كل التجارب فى ترويض هذا المارد الجديد .

كان فى كل مرة ينفجر لحسابه الخاص لا لحسابنا .. ويترك خلفه حفرة فى حجم صحراء الأريزونا ..

واقترح العالم التركى (عصمت آغا) توجيه قذيفة من هذا الديناميت الجديد لنسف الغلاف الجوى لكوكب الزهرة حتى يمكن رؤية سطح الكوكب الغامض الذى اختلفت فيه الأقوال ومازال هذا الاقتراح قيد البحث ..

وفى سنة ٢٠٦٢ اكتشف الكيميائى المصرى (ع . بدران) أقراص (السعادول) التى استنبط مادتها من أعشاب مخدرة تنمو فى الواحات ويعتبر السعادول المخدّر المثالى لهذا العصر والعلاج الفعال للقلق والكآبة والتوتر النفسى والخمول .. ورفيق الجيب الدائم لجلب السعادة والتفاؤل .. وهناك توصيات بإدخاله فى صناعة اللبان والشيكولاته والفطائر ومزجه بكميات قليلة فى الخبز العادى .

والدكتور ع . بدران اخترع لنا أيضًا الكلية الترانزيستور والرئة الترانزيستور والقلب الترانزيستور لتحل محل القلب الصناعى والرئة الصناعية وكانت كل واحدة تملأ غرفة من الحجم الكبير .

وآخر اختراعاته الكيميائية كان (ضاحكًا) قميص نوم حريمى يمكن أن يلبس ويؤكل .

صوت من آخر المدرج – قديمة .. ده اسمه قمر الدين (ضحك وتهريج) .

– وأهم حدث هذا العام كان الكشف الأثرى الذى حققته الباحثة العراقية (فيروزه) فى قاع الأطلنطى حينما عثرت لأول مرة على قارة الأتلانتيس الضائعة وكشفت آثار حضارتها القديمة .

دلت الحقائق تحت القاع على أن أجدادنا سكان الأتلانتيس عرفوا الكهرباء والذرة والصناعة الحديثة والعمارات المتعددة الطوابق كما أنهم مارسوا العبادات . وكانت لهم معابد وأبنية شبيهة بالمسلات والأهرامات .

وتقول الدكتورة أنهم عرفوا الروج أيضًا (ضحك) .

وهناك لوح إردوازى من هذا العهد عليه مايشبه كاريكاتير عن رجل وحماته (ضحك) ومعنى هذا أنه كانت على هذه الأرض ومنذ أكثر من خمسمائة ألف سنة حضارة تشبه حضارتنا وربما أرقى منها .. ثم اندثرت تمامًا .

صوت من الصفوف الأمامية يقاطع :

– أليس هذا دليلا على كون كله فوضى .. أن يندثر كل شىء من أرقى الحضارات إلى أهون الأفراد شأناً .. ألا يبدو الأمر كله

هزلاً فى هزل .. ولماذا تصّدع رءوسنا بكل هذه العلوم مادامت النهاية عبثًا فى عبث . أريد أن أفهم .

- وما الحكمة فى الليل والنهار ؟

- إننا على الأقل سيطرنا على الليل وأحلناه نهاراً بالكهرباء والأضواء الإلكترونية .

- لا .. أنا أقصد الليل الفلكى الطويل .

- حينما تنطفئ الشمس .. أعتقد أننا سنكون قد انتقلنا تماماً من هذه الأرض ونقلنا عزالنا إلى كوكب آخر .

- لا أنا أقصد الليل الفلكى الطويل المقبل علينا .. الم تقرأ آخر بيانات المراصد الفلكية وكيف أن الكون بدأ ينكمش بعد أن استمر يتمدد ١٣ ألف مليون مليون سنة .

وأن النجوم تقترب من بعضها الآن بسرعة هائلة . وبعد وقت طال أو قصر سوف تتصادم هذه النجوم وتنهدم عمارة الكون وتتقلّص وتنصهر وتذوب وتتحول إلى عجينة متضاغطة مثل قبضة اليد من المادة الأوّلية التى بدأ بها الخلقَ .

روزيتا : تهمس إلى نفسها وهى تنظر بهيام إلى الدكتور شاهين .

(أنا التى أذوب .. وأذوب .. لماذا تفكرون فى ملايين السنين الكونية وتنسون أعماركم القصيرة .. فليذهب الكون إلى الجحيم مادامت فى قلوبنا ذرة حب .. لماذا لم يفكر عالم واحد من علماء

الطبيعة فى ذرة الحب .. تحملق فى الهواء بنظرة شاردة وعيناها دامعتان .

الدكتور يلحظ شرودها :

- أنت لست معنا ياروزيتا .

روزيتا تفيق إلى نفسها :

- بل أنا معكم .. معكم جدًا .

- فى من تفكرين ؟

- أفكر فى معضلة فى علم الطبيعة .

- حقًا .. أية معضلة ؟

- إننا فكّرنا فى جميع الذرات .. ودرسنا خواص كل ذرة .. ماعدا ذرة واحدة مهمة جدًا .

- أى ذرة ؟

- ذرة الحب .

- (يضحك) ذرة الحب !

- صدقنى إنها الذرة الحقيقية التى يتألف منها الكون .

- على العموم هى فكرة لتخصّص جديد يمكن أن تنفردى به .

- (فى هيام) صدقنى أنا متخصصة فيه جدًا (تهريج من البنات والأولاد) . الدكتور يضرب المائدة محاولا أن يعيد النظام .. يستأنف كلامه بصوت مرتفع .

- وفى سنة ٢٠٦٣ اكتشفت الطبيبة المجرية (أجينا) طريقة لزرع الجنين الآدمى خارج الرحم وتربيته فى برطمان حتى كامل نموه.

ومنذ تلك اللحظة أصبح أطفال البرطمانات مثل أرانب المعامل مجالاً خصبًا لإجراء التجارب على المؤثرات الكيماوية والهرمونية والإشعاعية.

وبهذه الطريقة استطاع العالم المصرى د. غانم أن يتحكم فى عناصر الوراثة.. وأن يورث الطفل أية صفة جديدة يريدها ويمحو منه أية صفة وراثية لا يريدها.

وكلكم تعرفون بعد ذلك ما حدث من تدخل المجلس الأعلى للقوانين ومحاولات المشرع (دى جروفييه) سَنّ قانون جديد بتحريم هذه التجارب واعتبارها جرائم كبرى يمكن أن تصل بالمفهوم الجنائى إلى حدّ القتل والتشويه العمد وإحداث العاهة بطريق الخطإ أو بطريق القصد وأنها فى أدنى حالاتها تعتبر تدخّلاً فى حرية المواطن وإخضاعًا له بالقسر والجبر والإرغام بدون إذنه ومشورته وقهره على حالات مصيرية لم يخترها.

وكيف أن المناقشة القانونية مازالت مستمرة إلى الآن والتجارب موقوفة.

سأل أحد الطلبة:

- وما رأيك أنت يادكتور؟

وتردّد الدكتور لحظة ثم قال :

- رأيي أن تباح هذه التجارب بدون قيد ولا شرط (ضجة احتجاج فى المدرج وخصوصًا بين الطالبات بينما يمضى الدكتور فى كلامه) فالإنسان هو الذى يجب أن يتولى الوصاية على الطبيعة وليس العكس فهو العقل الوحيد المدرك الواعى بين كل هذه الظواهر العمياء .

- ولكن كيف يتولى الإنسان الوصاية على الطبيعة وهو ابنها الطفل وأحد نواتجها ؟ .. الطبيعة عمرها ٢٣ ألف مليون سنة .. ونحن تاريخنا لا يزيد على مليون سنة .. وما نعرفه من أمر هذه الطبيعة لا يذكر إلى جانب مانجهله .. وإذا كانت الطبيعة عمياء فكيف تفسّر التطور وسيره من المكروب إلى الإنسان فى اتجاه يدل على بصيرة وعقل ؟

- إن مايبدو لنا من بصيرة الطبيعة وهْم لأننا لا نرى إلاّ حسناتها . أمّا أخطاؤها وجرائمها وجناياتها فإنها تندثر أوّلاً بأوّل . إحدى جرائم الطبيعة التى استطعنا أن نعرفها كانت الزواحف المنقرضة . تلك المسوخ التى أنجبتها أمنا الأرض بطريق الخطإ ثم انقرضت عن آخرها .. وهذه الغلطة .. وغيرها ملايين الغلطات ردمتها الزلازل وغمرتها مياه المحيطات وحجبتها عن العيون .. التاريخ نوتة مزيفة .. ودفتر أعمال كاذب .. فهو لا يثبت إلاّ

الصالح والنتيجة أن تظهر لك الطبيعة وكأنها عاقلة وبصيرة ولا تخطئ .

– أنا أفهم أن يحكم الإنسان على إنسان مثله .. على جيل .. على مجتمع .. أما أن يحكم على الطبيعة .. على الكون كله فهو غرور وحمق .. إن العقل البشرى غير مؤهّل بمثل هذه الكفايات التى يرى بها الكليات والمجردات والبدايات والنهايات .. هل رأيت الحقيقة .. هل عاينت الجمال أو الحق أو الحرية .. أبدًا .. أنت ترى جزئيات محدودة فقط وهذه هى التى تستطيع أن تحكم عليها .

– هذه فلسفة كانتية راح زمانها .. الإنسان يحكم على كل شىء ويأخذ موقفًا من كل شىء أراد أو لم يرد ، أنتِ تحكم على الكون وترفضه ، وتحكم على الحياة أحياناً وترفضها ، والدليل على ذلك أنك يمكن أن تنتحر .

– وهل يكون هذا فعلاً صائباً ؟

– أنا لم أنتحر لأقول لك .

– أما أنا فسأنتحر وسأشعل النار فى نفسى كما كان يفعل البوذيون إذا استمر الإنسان فى هذه الحماقات ، وإذا لم يصدر قانون بتحريم هذه الجرائم (هرج ومرج فى المدرج) .

الأستاذ فى هدوء :

– سوف تثبت بفعلك .. حريتك المطلقة .. وبالتالى سوف

تناقض الكلام الذى تقوله .

– (فى ثورة) المسألة ليست مسألة منطق .. المسألة مسألة إنسانية .

يكاد يتحول النقاش إلى اشتباك .. والطلبة ينقسمون إلى حلقات يناقشون بعضهم بحدّة .. مرة أخرى نرى الأستاذ يدقّ بيده على المائدة :

– هدوء من فضلكم . هذه مسألة يبتّ فيها مجلس القوانين ويفكّر فيها مشرعون .. وليست مسألة يبتّ فيها طالب سنة أولى جامعة .

– ولكنه مصيرنا .

– إنه ليس مصيركم ولكن مصير أجيال لم تولد بعد .

طالب يميل على زميله هامساً :

(الجيل اللى جاى حايبق الواحد يقول للتانى .. ياابن البرطمان) .

(ضحك) .

الأستاذ يدق على المائدة :

– وفى سنة ٢٠٦٣ أيضًا وقع حدث ثورى .

تقرر أن يكون اللبن والخبز بالفيتامينات مجاناً كالهواء لكل من يحتاجه ، وأن تترك محلات الخبز واللبن مفتوحة طوال ساعات الليل

والنهار كما تفتح صيدليات الإسعاف ، وأقسام الاستقبال بالمستشفيات والمدارس فى كل مراحلها مجاناً .

كما تقرر أن تكون البدلة الشعبية التى تصلح لكل الفصول مجاناً أيضًا .

كما أصبحت العروض المسرحية والسينمائية مفتوحة بدون تذاكر .. والأسطوانات والكتب مفتوحة للطلب والاستعارة والامتلاك بدون شروط .

وأعلنت الهيئة الصحية العالمية انتهاء عشرة أمراض خطرة .. هى السل والكوليرا والتيفود والتيفوس والملاريا والحمى الصفراء ومرض النوم والبلهارسيا والزهرى والسيلان .. وشطبت هذه الأمراض نهائيًا من قائمتها ، كما شطبت الميكروبات الخاصة بها من قائمة علم البكتريولوجى .

وكان هذا أكبر انتصار سجلته البحوث الطبيه منذ بدأت . وفى الجانب الآخر ثبت بالإحصاء للأسف أن عدد حالات الجنون والانتحار قد ارتفع إلى أضعاف ما كان عليه أيام التأخر والرجعية . وكان التفسير الذى قدمه الطبيب النفسى الروسى (ليوبوف) لهذه الظاهرة أن هناك طاقات عنف مكبوتة لابد أن تفتح لها مخارج ومصارف طبيعية .

وقد طالب ليوبوف بعودة المصارعة الحرة والملاكمة والمبارزة

ونوادى اليوجا والصاعقة .. والرحلات الفدائية إلى أعماق الفضاء وألعاب السيرك الخطرة وكوميديات التهريج والإسفاف والنقد البذىء .. وقال إن الإنسان لابدّ أن يخرج قليلاً عن حدود الأدب بين وقت وآخر ليحتفظ بتوازنه وصحته النفسية .

طالب بعوينات سوداء يقاطع :

– حالة التعاسة النفسية المنتشرة وغير المتناسبة مع الرخاء واليسر المادى لا تحتاج إلى (ليوبوف) ليفسّرها ، فقد فسرها المسيح منذ أكثر من ألفى عام حينما قال : إنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان .

طالب آخر يمضغ لباناً :

– تذكر أنه ليس خبزًا عاديًّا . فهو خبز بالفيتامينات ولبن بالشوكولاتة .

الطالب ذو العوينات :

وفسرها القرآن منذ ألف وخمسمائة عام حينما وصف حالة الضنك النفسى التى يعيشها الكفار أمثالنا فى قول الرب – ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ..

وعاد الأستاذ يدقّ على المائدة :

– ربما كان تفسير ليوبوف غير كاف .. ولكن المسألة لها وجه آخر غير الذى يقول به المؤمنون أمثالك ، واعتقادى أن سرّ تعاسة هذا الجيل يكمن فى المسئوليات النفسية الهائلة التى يحملها .. لقد

تسلّم هذا الجيل مفتاح الطبيعة وفضّ مغاليق الحياة .. وبدأ يصنع الإنسان فى برطمان وبدأ يتحكم فى صفاته وخلقته .. وهى مسئولية بشعة تزلزل أكبر العقول .

طالب ذو لحية يقول بعصبية :

– أنا أوافق ليوبوف على أى حال فى أننا فى حاجة إلى مصارعات وملاكمات بين حين وآخر ، كما أننا فى حاجة إلى النقد البذىء .. هل تسمح لى أن أنقد هذا العصر يادكتور ؟

الأستاذ :

– من فضلك ..

الطالب منفجرًا :

– أعتقد أنه أحط عصور التاريخ .. وأنه عصر جاهلية ودعارة .

طالب آخر :

– على فكرة ده ماسونى ..

طالب آخر :

– ده من بتوع التكفير والهجرة .

الطالب ذو اللحية مستمرًا فى ثورته :

– أنا أبصق عليكم .. (يصرخ بأعلى صوته) أنا أبصق عليكم .. (بصوت يشبه العواء) أنا أبصق عليكم كلكم ..

وأشار الدكتور إلى اثنين من حرس الجامعة وهمس لأحدهما :

– احملاه إلى عيادة الطبيب وأعطياه حقنة سعادول فى الوريد فوراً .

وانطلق الحارسان وحملا الطالب وهو مازال يصرخ ويعوى .. أنا أبصق عليكم كلكم .. أنتم حيوانات وثنية ..

وخفت الصوت تدريجيًا والحارسان ينطلقان بحملها ويختفيان فى الممر الطويل .

وانطلق الطلبة فى نوبة من الضحك .

– هذا يؤكد كلام ليوبوف .. نحن فى حاجة إلى بعض العنف .

طالب آخر :

– إنه يريد أن يقتل .. لا أظن أن مجرد العنف سوف يكفيه .

طالب ثالث :

– أعتقد أنه يريد أن يبصق فقط (ضحك) .

طالب رابع :

– أنا أوافقه على كل كلمة قالها .. نحن فعلا نعيش فى أحط عصر من عصور التاريخ رغم الثراء والرفاهية .

طالب خامس :

– لو وجد مثل هذا الرجل طريقه إلى الزعامة والحكم لعدنا إلى أيام الحروب .

وقال الأستاذ فى نبرة أسف :

– لا أفهم كيف توجد أمثال هذه العقليات فى عصر العلم والنور .. لا أفهم .. يبدو أن الإنسان كائن معقد جداً .

طالب آخر :

– أو ربما نحن نستحق أن يبصق علينا فعلا .

أجاب الأستاذ :

– من الجائز .. ولكن ليس هو الذى يبصق علينا على أى حال ..

طالب آخر :

– أرأيت منظر لحيته ..

الأستاذ .. (فى إشفاق) :

– إنه أولى بالحب على أى حال .. إنه فى حاجة إلى من يحبه .. فى حاجة إلى من يصادقه .

طالب آخر :

– إنه يرفض أى صداقة .. ويبادر بالعدوان والتهجم على كل من يتقدم له .

الأستاذ :

– الذنب ذنبنا .. نحن القادرون وهو العاجز .. نحن الذين فشلنا فى أن نكسبه .. (شارداً) أحياناً يخيل إلى أن العالم مازال

ينقصه الحب .

طالب آخر :

– ليس السعادول هو الذى سوف يصنع الحب .. أستاذى أننا نعيش فى غرور كاذب .

–ربما .. ربما ..

(روزيتا أحمدو لنا) تنظر إلى الأستاذ فى هيام وتهمس إلى زميلتها :

– انظرى ياداليا .. ألا يبدو شاعراً .. ألا يبدو ملائكى الوجه مثل الأنبياء .. انظرى إليه وهو يتكلم عن الحب .. إلهى كم أحبّه .. كم أعبده .

داليا – ماهذه النبرة الصوفية عن الأنبياء والإله .. ماهذا الكلام الغريب ؟

روزيتا – نعم ياداليا .. مادمت أحب .. فالله موجود .

داليا – أنت تهذين .. إن الحب جعلك تخرّفين تماما .

– داليا .

ونظر الأستاذ إلى روزيتا :

هذه ثانى مرة أضبطك تهومين فيها بعقلك خارج الدرس .. كفى شروداً ياروزيتا .. أرجوك .

روزيتا : (فى حنان) :

أنا التى أرجوك .. (تصفير فى الصفوف الأخيرة من المدرج) .

وعاد الأستاذ يدقّ المائدة بيده وقد احمر خجلاً :

– وفى عام ٢٠٦٧ .

روزيتا :

ياإلهى .. وهل حدث شىء فى عام ٢٠٦٧ ؟.. إنه لم يكد يبدأ .

الأستاذ :

– نعم حدث حدث هائل منذ ثلاث ساعات فقط .. أمكن تخليق البرتوبلازمه الحية فى المعمل من مواد ميتة .

روزيتا :

– أوه .. هذا حدث تافه .. أعتقد أن هناك حدثا أكبر سوف يقع فى دقائق .

الأستاذ :

– وماهو ؟

روزيتا :

– ياحبيبى .. إننا نستطيع أن نقدم هذا الحدث للدنيا .. أنا .. وأنت (فى صوت ولهان يذوب رقة) .. نتزوج .. مارأيك ؟ .. أنا أخطبك .

الأستاذ : (فى ارتباك واضح وقد تضرج وجهه بحمرة قرمزية)

وأنا .. وأنا أوافق .

(تصفيق وتهريج وتصفير ودقّ بالأرجل وزغاريد فى طول المدرج وعرضه) .

تقف روزيتا وترسل قبلة فى الهواء إلى أركان المدرج الأربعة .

روزيتا :

وهناك حدث آخر أهم .. فقد أصبحت أبا ياحبيبى .. نعم .. لقد تأكدت .. فأنا حامل .. وعن قريب سوف يأتى إلى الدنيا طفل جديد بدون برطان .

رقص فى أرجاء المدرج ..

والطلبة يحملون الأستاذ على أكتافهم .

وعلى الباب يقف عبد الكريم ناظرا إلى صديقه فى دهشة .

الفصل الثانى

وهكذا تم زواج الدكتور شاهين وتلميذته الجميلة (روزيتا أحمدولنا) .

ونحن الآن فى عشّ العسل السعيد الذى يعيش فيه الزوجان .. وهو عش مختلف عن أعشاش العسل المعروفة . فهو معمل المغناطيسية والكهرباء الخاص بالدكتور شاهين ..

وقد قرر الدكتور شاهين أن يقضى شهر عسله فى معمله .. فالعسل فى نظر الدكتور شاهين هو العمل ..

والدكتور شاهين الذى رأيناه يعطى الطلبة دروساً فى التاريخ فى جامعة كامبريدج هو فى الحقيقة أحد ثلاثة من حاملى جائزة السلام ونيشان أمحوتب فى الكهرباء والمغناطيسية . وما التدريس إلاّ عمل فرعى ثانوى يقوم به كعادة صفوة العلماء . ليعطوا القدوة الحية للجيل الجديد . وليكونوا على صلة دائمة به . لا يعزلهم نبوغهم فى

أبراج عاجية كما كان فى الماضى .

وحينما نقول الكهرباء والمغنطيسية فإننا نقول شيئاً كالشعر والموسيقى بالنسبة للدكتور شاهين ..

الدكتور شاهين يقول إنه كلما اقترب من سر المغناطيسية يشعر أن يقترب فى الحقيقة من سر الحب ولغز الكون وطلسم الوجود كله .

فالمغناطيسية عنده ليست مجرد جذب قضيب مغناطيسى لبرادة الحديد ، وإنما هى قانون الوجود الأول . فكل مادة وكل جسم فى فضاء يخلق حوله مجالاً ، وأيًّا كان هذا الجسم ، قطعة حديد أو قطعة نيكل أو كتلة خشب أو ذرة تراب ، ومن أصغر كائن من الإلكترون أو البروتون ، إلى النجوم العمالقة فى أفلاكها ، لا يشذ هذا القانون ولا يختلف . فالبروتون فى نواة الذرة له مجال جاذبية يشد إليه الإلكترونات ، كما أن للشمس مجال جاذبية تدور فيه الكواكب ، وللأرض مجال جاذبية يشد إليه القمر .

وبالمغناطيسية الأرضية تمسك الأرض بغلاف من الهواء حولها وتمسك بالماء فى المحيطات فلا يندلق ويتبدد فى فضاء الكون وهى تدور .

حتى السحاب السابح فى الجوّ تمسك به فلا يستطيع انطلاقا فى رحاب الفضاء وإذا بعدنا عن الأرض وأوغلنا فى متاهات الكون فإننا نعثر على تجمعات ضبابية من الغازات والتراب تائهة بين النجوم

تبدو بلا شكل وبلا نظام . ولكن إذا بحثنا وجدنا فى أعماقها بذور النظام ، ذلك الحنين بين ذراتها لكى تتجمع تحدوها تلك الجاذبية السحرية .

ومن الفوضى تبدأ دوامات فى هذا العماء من الضباب تتهافت فيها التجمعات الصغيرة نحو التجمعات الكبيرة وتدور حولها .

هذه الدوامات هى التى تتكثف فى المستقبل نجومًا وكواكب وتشتعل بالحرارة الناشئة من فرط التضاغط الجذبى بين ذراتها وتصل إلى ملايين الدرجات المئوية ، وهى الدرجات القصوى التى تنفرط فيها الذرات وتعود فتتحد فى صور جديدة وتتخلق منها غازات ومعادن وعناصر مما نرى حولنا فى الأرض من حديد ونحاس وذهب وقصدير وآزوت .

كل هذا حدث ويحدث لأن هناك شيئاً اسمه (جاذبية) . لأن هناك قانوناً أساسيًّا يربط كل جسم بالأجسام حوله .

ماتسميه روزيتا (الحب) .

وما يسميه الدكتور شاهين المغناطيسية ..

وروزيتا تقول إن حول جسم الدكتور شاهين مجالاً مغناطيسيًّا يجذبها فتدور فى فلكه .. وأن البوصلات الإلكترونية الحساسة لم تستطع بعد أن ترسم المجالات الغرامية المغناطيسية ولكنها موجودة .. وأنه إذا كانت المادة الميتة لها مجال فالمادة الحية وهى أرق وأقدر على

الفعل والتأثير لابد لها مجالها .

والمنظر أمامنا الآن طريف جدًّا فهى تقبل الدكتور شاهين قبلة عنيفة ثم تلمس عدة أزرار فتنفتح عدة نوافذ حساسة فى أجهزة شديدة الدقة فى محاولة لالتقاط التغيرات المرتقبة فى المجال الكهربى المغناطيسى على بعد أمتار من القبلة ..

والدكتور شاهين يضحك قائلاً :

- أنت تخرفين ياروزيتا .. إن مجال الزوجية المغناطيسى فى جيب الزوج وفى محفظته .. وليس للبوصلات الإلكترونية دخل به .. لقد شددت المرتب من جيبى بنظرة ساحرة منذ لحظات على بعد أمتار وبدون لمس .. أليس يكفيك هذا دليلا على مغناطيسيتك ..

- أهذا رأيكم فى الحب يارجال ؟ .

- أنا أتكلم عن المغناطيسية وليس عن الحب .

- ومع ذلك لن أيأس .. أؤكد لك أنى سوف أبرهن على خطوط المجال الغرامية ..

- هل سمعت عن خطوط المجال الغرامية ياعبد الكريم ؟ وكان عبد الكريم منهمكًا فى إعداد مغناطيس كهربى كبير على هيئة حدوة حصان فى ركن من المعمل .

ورفع عبد الكريم رأسه ورمق الزوجين بنظرة سريعة .

- جائز .. كل شىء جائز .. لم أعد أستبعد شيئًا ..

– وأنت أيضا تصدق هذا التخريف؟

– إن الحيوان المنوى يتجه إلى البيضة فى ظلام الرحم بدون إرشادنا على أى حال .

– إنه يملك فطرة إرشادية موروثة .

– حسنًا .. والمغناطيسية ماهى إلاّ الفطرة الإرشادية المورثة فى الأجسام التى ترشد الأجسام بعضها إلى بعض فى ظلمة الكون وعمائه ..

– تعبير طريف .. يجعل أبحاثنا أشبه بالأبحاث الروحية .. وحملق الدكتور شاهين فى الفراغ وشرد قليلا ثم أردف :

– إنى أشعر بالفعل كلما اقتربت من سرّ الجاذبية وكلما لمسته أنى ألمس قدس الأقداس وأنى أدخل محرابًا .. (بعد لحظة صمت ..يغمغم فى تساؤل) ترى هل يقدر لى أن أكتشف ذلك السر؟ إن ما يجعلنى أعجب كل العجب هو هذا الشيء الذى يسمونه خطوط المجال .. هذه الخطوط الوهمية الفرضية حول أى مغناطيس .. لا ترى ولا تسمع ولا تلمس ولا تحس ولا تحتاج إلى وسيط فهى تمتد فى الهواء كما تمتد فى الماء كما تمتد فى الفراغ .. هذه الأشياء الوهمية كم هى حقيقية ! يكفى أن تقطع خطًّا وهميًّا منها بسلك فيتولد فى السلك تيار كهربى على الفور (نظرية الدينامو المعروفة) يضيء لك مصباحًا ألف وات لتقرأ عليه فى الظلام ..

شيء كالخرافة ..

وأينشتين يقول لك إن هذه الخطوط هي انحناء الفضاء حول الأجسام .. كيف ينحني الفضاء .. ؟ كيف ينحني اللاشيء .. أنا لا أفهم ..

والرياضي الروسي ديموف يقول لك إنه ليس هناك شيء اسمه « فضاء » وأن الفضاء هو في الحقيقة « ملاء وامتلاء » .

ولا يبدو أن أحداً يفهم مايقول ..

ويخيل إلى أني لن أعثر على الحقيقة وأنا أجرى التجارب في المعمل .. وإنما وأنا أغمض عيني وأحلم ذات مساء .. وخرج الدكتور شاهين من المعمل ومازال على شروده ..

ولفّ عبد الكريم آخر لفّة من السلك في يده حول الأسطوانة الخزفية .. ثم اقترب من رزويتا وأمسك يدها في حنان ..

جذبت روزيتا يدها ونظرت إليه في إشفاق هامسة :

– عبد الكريم ..

– إني أحبك .. أعبدك ..

– هذا جنون .

– إننا في عصر الصدق . ويجب أن أقول لك الحقيقة .

– ولكنك تعلم أني تزوجت . وتزوجت صديقك وزميلك ..

– تزوجينا نحن الاثنين .. إننا في عصر حرية ..

- هذه ليست حرية .. وإنما فوضى ..

- ولكنه يحدث الآن أن تتزوج امرأة رجلين ..

- إنها لا تكون امرأة .. انها تكون بغيًا ..

- هذه عقلية رجعية ..

- حينما تعطى امرأة قلبها وجسمها لرجلين فإنه يكون اعترافًا منها بأنها لا تحب الاثنين ، وأنها لم تعد تحب ولم تعد عندها المقدرة على أن تحب . وإذا استمر هذا الاتجاه فى مجتمعنا فسوف تنتهى الأسرة وتنتهى دولة المرأة وتقضى المرأة على نفسها بنفسها . فلا شىء يرفعنا فى مكاننا من القداسة والجلال سوى أننا مازلنا رمزًا للحب والوفاء والأمومة .

- هذا بقايا مثاليات بالية .. الحياة حياة وهى سوف تعلمك . (فى خبث) سوف تشعرين بعد شهور من الزوجية بالفتور والملل .. وبلذات الفراش وقد حولها الروتين إلى ضجر .. ضجر قاتل ..

- هذا مايصوره لك خيالك .

- (فى لؤم) وهو ما بدأ يشعر به هو أيضًا . فأنا أراه هذه الأيام يغازل التلميذات ويبادلهن القبلات فى المقصف ..

- قبلات الإعجاب من أستاذ لتلميذاته ..

- ولكنها قبلات تطول أحيانًا لدرجة تشكك فى طبيعتها ..

- (تصرخ) عبد الكريم ..

– أنا أحبك .. أعبدك ياروزيتا ..

– أنت مجنون .. ألست واحدة كالأخريات .. ما الفرق بين شكلى وشكلهن ؟ إننا كلنا الآن متشابهات كأننا نسخ من طبعة واحدة ..

– صحيح أن التزاوج بين الدول وزوال الحدود قد مزج الأجناس بسرعة وخلق منها متوسطات متشابهة . ولكن المسألة لم تكن أبدًا فى يوم من الأيام مسألة شكل . فها أنا أشبه زوجك ولكنك لا تحبيننى ..

– عندك حق . إنها مسألة أرواح (هامسة لنفسها) فها نحن مختلفون متباينون أكثر مما كنا . وكأننا مازلنا بيضًا وسودًا وصفرًا وحمرًا . إنه لأمر فظيع ..

– روزيتا .. (يمسك يدها ولكنها تنتزعها منه .. يتوسل إليها فى ضعف) إنى أحبك .. أعبدك ..

– أعبدنى كما تشاء ولكن لا تلمسنى ..

لن أستريح حتى يلتحم جسدانا وتندمج خلايانا ..

– كفى هذراً .. لا تنس أننا نعيش معاً نحن الثلاثة ، وأنه لا يعلم .

– بل هو يعلم .

– أنت مجنون ..

ودخل الدكتور شاهين يحمل صحيفة فى يده .

– آخر نبأ من المريخ أن النباتات التى حملت إليه من الأرض قد نمت فى غابات كثيفة فى حزامه الاستوائى وقالت روزيتا بنبرة أسف :

– إنه لأمر محزن أن ننقل أوبئتنا إلى كوكب معقّم نظيف مثل المريخ ..

– إنه ليس معقما كما تتصورين . فالأحجار الإسفنجية التى جلبها الكيمائيون من على سطحه قد ثبت أخيرًا أنها نوع من أنواع الحياة . وهم يزرعونها الآن فى ظروف جوية مصطنعة تشبه ظروف المريخ فتنمو وتتكاثر .. قال عبد الكريم :

– أحجار حية ! شىء طريف جدًّا .. ربما لو وجدت كائنات راقية على زحل ، وأخذت عينات من أحجار المقطم عندنا لاكتشفت أيضًا أنها أحجار حية ..

الدكتور شاهين :

من الجائز .. أنا لا أستبعد أن يكون الجماد حيًّا على طريقته .. وأعتقد أنه لا يوجد فاصل بين الحياة واللاحياة ، وأن الطبيعة حية كلها على مستويات . ألا يبدو الفيروس فى سلوكه وتكاثره أنه يتصرف مثل كائن حىّ مع أنه بلورات مادية صلبة .. ؟ وغاز الأيدروجين حينما يتفاعل فى باطن النجوم ويلد تصانيف من العناصر

والمعادن والمواد المختلفة . ألا يبدو كأنه ذرة حية تتحرك وتتزاوج وتتوالد وتتناسل ؟ وأدق الدقائق فى الوجود ، مكونات النواة فى الذرة ، ثبت أنها أكثر من سبعين من التصانيف المادية ، كل منها له عمر وأجل ينتهى بعده ، ليتحول من حالة إلى حالة . وبعض هذه الموجودات الصغيرة عمرها ١ من عشرين مليونا من الثانية . عمر قصير جدًّا ولكن من الجائز أن يكون أجلا طويلا بالنسبة لها . إن المسائل نسبية دائمًا .

وقاطعة عبد الكريم :

– إذا كنت تسمّى كل شىء حياة .. فما معنى الحياة عندك ؟

– الحياة هى الفعل والانفعال . وحينما خلق الطبيب الأسترالى (لاج) الحياة فى محلول غروى منذ شهور ، لم يفعل شيئا فى الحقيقة سوى أنه بدأ تفاعلا متسلسلا فى الأحماض الأمينية ، كما حدث التفاعل المتسلسل فى القنبلة الذرية .

– الكون كله فعل وانفعال . إذن أين الموت ؟

– الموت ببساطة لا وجود له .

– هذا شىء فظيع ..

– (مندهشاً) شىء فظيع لماذا ؟

(عبد الكريم وهو ينظر إلى روزيتا) :

– لأن الموت راحة .. نهاية .. وبدون هذه الراحة تتحوّل

الحياة إلى كابوس لا أمل فى الخلاص منه .

– أنا أسمى هذه رومانتيكية لا تليق بالعلماء .. أنت تقرأ بيرون أكثر من اللازم . أنصحك بأن تتعاطى قرصًا من (السعادول) هذه الليلة قبل النوم .

– أشكرك سوف أتبع نصيحتك .

ولكن الذى حدث فى تلك الليلة أن الجيران سمعوا انفجاراً هائلاً فى المعمل وأخرج رجال الإسعاف عبد الكريم من تحت الأنقاض بدون إصابات تذكر .

وكان الدكتور شاهين وروزيتا ساهرين فى الخارج لحسن الحظ .

وألقت هذه الحادثة ظلاًّ من الحيرة على شاهين .

وحركت سؤالا ظلّ يطرح نفسه كل ليلة على عقله .

ماذا حدث بالضبط ؟

إن الغرفة التى حدث فيها الانفجار قد تحولت إلى أنقاض .

والتجربة التى كانت تجرى كل ليلة فى تلك الغرفة . كانت محاولة (للتفتيت الموْجى) بإرسال قذيفة مركزة من الأشعة لتضرب صفائح رقيقة من الألمونيوم . والنتيجة تفتيت ذرات قليلة وانطلاق أمواج كهرمغناطيسية تلتقطها أجهزة حاسبة خاصة وتسجلها .

وفى تلك الليلة اقترح شاهين تجربة جديدة .. تجربة تشبه الإرسال التليفزيونى . ولكن ما حدث أن صمامات التحويل

ارتفعت حرارتها فجأة ثم توهجت وحدث تفريغ كهربى عنيف أدى إلى انفجار المعمل . هكذا قال عبد الكريم .

كل هذا ممكن .ومحتمل . وعادى . ويحدث فى أحسن المعامل ولكن المحيّر حقًّا أن ثلاثة فئران اختفت تمامًا من أقفاصها فى الغرفة المجاورة التى لم يمسها سوء .

وهى لم تهرب . لأن مزاليج أقفاصها مازالت على حالها مغلقة من الخارج .

ولم تحترق . فلا توجد آثار رماد . والغرفة سليمة .

ولم تسرق . فأى قيمة لثلاثة فئران يمكن الحصول على مئات أمثالها من أى حقل مجانا .

إنها .. وهذا هو اللغز .. تبخّرت .

نعم .. تبخرت تمامًا .

تحولت إلى فراغ ..

* * *

حبس الدكتور شاهين نفسه فى مكتبة الجامعة يقرأ .. ويقرأ .. ويفكر .. ثلاثة أسابيع متصلة .

كان يأكل وهو يكلم نفسه .. ويمشى وهو يرسم إشارات فى الهواء بيديه .. ويشرد أحيانًا . فيستغرقه الشرود ساعات .

وفى لحظة ذات صباح بعد أرق طول الليل .. خبط فجأة على

جبهته هاتفًا : ولماذا لا أقول أنها تحولت إلى موجات ؟

ورفع صوته أكثر ليؤكد لنفسه كل كلمة .

– نعم .. لماذا لا أقول إنها تحولت إلى أمواج ؟

إن جهاز الإرسال التليفزيونى يحول صورة المذيع إلى أمواج .. وجهازى كان مختلفًا .. فلماذا لا أقول إنه استطاع أن يحول جسم المذيع كله إلى أمواج ؟ وأنه قد حلل جسم الفئران إلى أمواجها الأولية وأطلقها فى الهواء ؟

جنون ..

محض افتراض لا يصدق ..

ولكن لماذا لا أحاول أن أعيد وأتأكد بنفسى ؟

ولماذا لا أحاول أن أجمع الأمواج بجهاز استقبال خاص وأرى فئرانى الضائعة ؟

إن أطوال الموجات المحتملة التى أطلقها الجهاز يمكن تقديرها بالحساب ، والباقى يمكن أن تقوله التجربة المباشرة .

وجمع الدكتور أوراقه ، وغادر المكتبة مسرعًا ليطير إلى بوليفيا ، وليختفى ثلاثة أيام فى معمل بوليفيا للكهرباء والمغناطيسية (أكبر معمل من نوعه من العالم) .

وحينما خرج بعد هذه الأيام الثلاثة ، كان يبدو زائغ البصر شاحب الوجه مرتجف الأوصال .. وحينما حملت له روزيتا الطعام

ذات ليلة ، قالت له دامعة العينين :

- إنى لا أكاد أعرفك .. انظر لقد طالت سوالفك ، وتهدل شعر ذقنك . إنك تبدو كأسير حرب يخفى بين جنبيه سرًّا هائلاً .

قال بصوت مرتجف :

- نعم ياروزيتا لقد صدق حدسك .. إنى أخفى بين جنبى سرًّا هائلا سرا لا يصدق .. لا أصدقه أنا نفسى .

وفى تلك الليلة شعرت روزيتا بنفسها ترتجف هى الأخرى قبل أن تسمع كلمة واحدة من السر .

السبت ١١ فبراير سنة ٢٠٦٧ .

دخل الدكتور شاهين غرفة رئيس أكاديمية العلوم (ميليان أوكومبا) .

ووقف الرجل الجليل مبهوتًا .

لقد بهته منظر القادم بلحيته المهملة .

وجلس شاهين وهو يلهث :

- أستميحك العذر فى أنى لم أطلب موعداً ولم أبلغ أحداً بساعة قدومى ، ولكن الأمر غاية فى الخطورة .

وقال أوكومبا فى سماحة :

- دكتور شاهين .. أنت أحد ثلاثة يدخلون علىّ متى شاءوا .. أنت أحد الذين يبنون أمجاد هذا العصر .. تفضل .

- أشكرك .. ولكن الأمر هذه المرة جدّ خطير .. فإما أنى جننت .. وإما أنى حققت مستحيلاً .

- حقًّا .. لقد حركت فضولى .. إنى لا أستبعد على مثلك أن يصنع المستحيل .. هيه .. تحدث .. كلى آذان صاغية .

-لا . إنه شىء لا يمكن التحدث فيه .. فلو تكلمت ربما أودى بى كلامى إلى مستشفى المجاذيب .. هذا شىء لابّد أن يشاهد .. وإذا كان لديك وقت لنذهب معًا إلى معمل المغناطيسية الكبير فى بوليفيا ، فإنك سترى شيئًا يستحق الرؤية .

وهبّ أوكومبا واقفًا :

- أنا رهن إشارتك .

وفى دقائق كان الاثنان يقفان وحدهما فى معمل تتقاطع فيه الأسلاك وتتراص أجهزة الجهد العالى ومولدات الكهرباء والمكثفات .

ولمس الدكتور شاهين بضعة أزرار وقال وهو يشير إلى ناقوس زجاجى تحته فأر كبير أسود على أنفه نقطة بيضاء .

- انظر إلى ماسوف يحدث لذلك الفأر .

وفغر أوكومبا فاه وهو يرى الفأر يتبخر ، ويتحول إلى فراغ دون أن يترك أثرا . واقترب من الناقوس ليتحقق مما شاهده .

كان الناقوس منكسًا فى مكانه ولا أثر لشىء بداخله ..

– هذا مستحيل .. لقد تبخّر تماماً .

قال الدكتور شاهين :

– لقد تحول إلى أمواج .

– أمواج .. ؟

– نعم . إلى موجة من طول معين لنسمّها المَوْجة الفأرية .. والآن انظر إلى الفأر الثانى تحت الناقوس الثانى .

الفأر الأبيض ..

وضغط شاهين على زر آخر فاختفى الفأر الأبيض ..

وقال مردفًا :

– وهذا الأخير قد تحول الى الموجة الفأرية ب .

وأشار إلى فأر رمادى تحت ناقوس ثالث ، وضغط على زر .

وأردف وهو يصعد أنفاس الارتياح :

– لقد تبخرت الفئران الثلاثة ..

وقال أوكومبا فى ارتباك :

– هذا سحر ساحر .. أنا لا أصدق عينى .

وقال شاهين محاولا أن يشرح :

– لا سحر هناك .. إن جهاز الإسال التليفزيونى العادى يحول الصورة إلى أمواج كما تعلم .. أما هذا الجهاز فهو يختلف قليلا ، وهو لهذا يحول الجسم كله إلى أمواج .

– معنى ذلك أنك تستطيع ..

– نعم أستطيع بجهاز استقبال مناسب أن أجمع الفئران الثلاثة من جديد من الهواء ..

وضغط شاهين وهو يتكلم ، على زر أمامه فظهرت على شاشة تليفزيون صغيرة صورة للفأر الأول ذى النقطة البيضاء على أنفه .. وكان يتحرك بسرعة .

وبلمسة لزرين آخرين ظهرت على الشاشة صورة الفأرين الآخرين ..

وقال أوكومبا فى قلق :

– ولكنك لم تعد إلى الفئران .. لقد أعدت إلى صورها فقط ..

وهنا تهالك شاهين على مقعده وقد اعتمد جبهته بيديه يائسًا .

– نعم هذه هى المشكلة .. لم أستطع أن أعيد الفئران إلى حالتها الجسمية الأولى أبداً مهما جاهدت محاولا فى كل مرة . كانت صورها هى التى تعود أما أجسامها فلا . لقد تحللت أجسامها إلى غير عودة .

وأردف حائراً بعد لحظة صمت :

– يبدو أنها فضلت الحالة الموجية من الحياة وقررت ألاّ تعود إلى الحالة الجسمية أبداً .. يبدو أن الخروج من الجسم إلى حالة الأمواج يكون كالخروج من سجن ملعون إلى حالة رفافة طليقة أثيرية .. حالة من السعادة يستحيل على المخلوق أن يفكر بعدها فى العودة إلى

سيرته الأولى .

– ولكن اسمع إنها تموء .

ووضع أوكومبا يده على جبهته هاتفًا :

– معنى هذا يا إلهى ..

– معنى هذا أنها حيّة .. وموجودة .. ولم تنعدم ..

– ومعناه أيضًا أننا نستطيع ..

– نستطيع أن نحول إنسانًا إلى حالته الموجية ، ثم نتابعه على شاشة تليفزيونية ونستمع إلى كلّ مايقوله وما يفعله .. وإلى مايراه فى عالم الأمواج .

– وربما استطعنا أن نرى الأموات لو أننا عرفنا أطوالهم الموجية ، وربما عرفنا أين هم الآن؟

– وأهم من هذا أننا سوف نستطيع أن نسافر بالحالة الموجية الجديدة إلى الكواكب البعيدة والمجرات القاصية ، دون أن نحتاج إلى حمل مؤونة من الطعام والشراب .. فسوف نسافر على شكل أمواج ، وسوف نصل إلى أهدافنا فى دقائق أو ساعات ، وسوف يرانا أهل الأرض على شاشاتهم التليفزيونية ويستمعون إلينا نروى مانشاهده .

– شىء رهيب .. معنى هذا أننا قد تحررنا أخيراً من الجسد ..

وصمت أوكومبا وطال صمته ثم عاد يغمغم :

– ولكن هذا هو الانتحار بعينه ..

من يقبل أن يجرب على نفسه هذه التجربة الجنونية ؟ إنها ليست محض تجربة .. إنها انتحار .. إن من يذهب فيها لن يعود .. لن يعود أبداً . هذه جريمة قتل لن يسمح بها مجلس القوانين .

– سوف أجرى أنا التجربة على نفسى .

– أنت ؟ مستحيل .. إن الخسارة تصبح مصيبة ..

– إنها ستكون كسباً علميًّا لا يجارى . سوف أسافر إلى كوكب جوبتر « المشترى » وسوف أروى لكم سر هذا الكوكب ذى الخمسة عشر قمرًا ، وسوف أنزل على زحل ذى النطاق المضىء المحير وأكتشف ألغازه . . سوف أنطلق إلى الشعرى اليمانية .. وإلى كوكبه الجبار .. والمرأة المسلسلة والدب القطبي والكلب الأكبر .. لن يهمنى برد ولا صقيع ولا لهيب سوف أنزل فى باطن الشمس فأنا موجة ولست جسداً .

لن يهمنى أن أجد هواء أتنفسه ، أو ماء أشربه ، فأنا لا أتنفس ولا أشرب . أنا موْجة . تخترق كل شيء وتسرى كالبرق فى كل شيء .

لن أحتاج الى صاروخ معقّد التركيب ملئ بالعدادات والغرف المكيفة ، فأنا موجة تنتشر فى الزمان والمكان بلا حدود .. أسافر بذاتى حيث أشاء بلا واسطة .. أركب الأثير وأمتطى الزمن .

وهنا انفتح الباب ودخلت روزيتا صارخةً وألقت بنفسها على صدر أوكومبا :

– مستحيل .. قل له إنه لن يفعلها .. قل له إنه لن يفعلها .. إنه سوف يقتل نفسه .. سوف يقتل نفسه .. إنه لن يعود .. هل تفهم ؟ إنه لن يعود . وقال أوكومبا مؤكدًا وهو يربت على كتفيها :

–لا .. إنه لن يفعلها .. أنا لن أسمح له .. سوف آمر بوقف هذه التجارب على الفور . وهنا انتفض الدكتور شاهين مذهولا :

– ما .. ماذا تقول ؟ .. سوف توقف ؟

– نعم سوف أوقف هذه التجارب .. إنها تهدد البشرية بالفناء وتهدد الأرض بالخراب .. ماذا يحدث لو أن كل من فى الأرض حولوا أنفسهم إلى موجات وأعجبتهم الحالة الجديدة لحياتهم .. سوف تنتهى الخليقة ببساطة . سوف ينقرض جنسنا كله ..

– ولكن الأمواج .. الأمواج ..

وخبطت روزيتا الأرض بقدمها صارخة :

– الأمواج .. وماذا يهمنى من الأمواج ؟ أنا لن أستطيع أن أضمّ الأمواج .. لن أستطيع أن أحتضن الأمواج .. لن أستطيع أن أناجى الأمواج . إنها بالنسبة لى سوف تكون عدمًا . إنك سوف تصبح بالنسبة لى عدما لن أجدك فى جوارى .. لن أتحسس وجهك

الشاحب المتعب لن أضع رأسك على كتفى .. لن أذوق دفء شفتيك .

– ربما كانت حياتنا كأمواج أجمل ...

– أنا لا أستطيع أن أهجر حياتى التى أعرفها إلى مصير لا أعلمه .. ولماذا أتعجل الموت وهو قضاء مكتوب علينا جميعًا .. سوف نموت كلنا ونصبح أمواجاً كما تقول .. لماذا نتعجل هذه النهاية وننتحر بلا مبرر ؟

– ألا يمكن أن أعيش فى قلبك كشىء مجرد ؟

– لا ..لا .. أنا لا أفهم فى هذه المجرّدات المفرغة من اللحم والدم .. لا أفهم فى هذه الرموز والشفرات الجبرية التى تفنون فيها أعماركم . أنا أريد واقعاً ألمسه . أريدك لحمًا ودمًا ودفئًا ونبضًا ووجودًا ملء السمع والبصر والحواس .

عشْ لى .. عشْ من أجلى .. عش لترى ابنك .. إن وليدك القادم يريد أن يرى نور عينيك ويتربى فى دفء حنانك . حبيبى .. أملى .. لا تخذلنى ..

– حبيبتى أنت .. لا تخذلينى . لماذا لا تشعرين فىّ إلاّ بالرجل وتنسين العالِم والمفكّر ؟.. ولماذا لا تعترفين إلاّ بالجسم وتنسين العقل ؟ .. لماذا لا تقفين إلى جوارى وتشجعيننى ؟ .

– أشجعك على هلاكك ؟ .. أشجعك علىَ تجربة تهدّد حياتنا

بالخراب ؟ .. أشجعك على الفناء وأنا المرأة الحبيبة الأم .. أنا السكَن والعشّ ؟ .. أنا البيت والعمار ؟

إنى أخون نفسى لو شجعتك .. أخون حقيقتى .. رسالتى .. جوهرى .. أخون روحى .. مستحيل .. مستحيل .

وألقت روزيتا بنفسها على صدر أوكومبا متوسلة :

– عدنى ياأوكومبا أنه لن يفعلها .. عدنى .. عدنى بشرفك العلمى ...

– أعدك أنى لن أسمح بهذا الحق ..

– ولكن كيف .. كيف تضمن ؟

وأجاب أوكومبا بصوت ثابت .

– سوف أعتقله .. إنه مخلوق خطر .. إنه أخطر من كل الطواعين التى عرفتها البشرية ..

وفغـر الدكتور شاهين فاه غير مصدق .. وانهار فى مكانه فاقد الوعى .

الفصل الثالث

لم يكن الدكتور يصدق أنه سجين .

نعم . سجين ..

وفى زنزانة جدرانها من المسلح ، ونوافذها من الحديد تماماً كسجون القرن العشرين ..

يحدث هذا فى عصر النور والحرية والعلم .

مستحيل .. هذا حلم .. كابوس ..

ولكنه مازال يذكر صوت أوكومبا وهو ينزل على رأسه كالمطارق .

– سوف أعتقله . إنه مخلوق خطر .. إنه أخطر من كل الطواعين التى عرفتها البشرية ..

هل أصبح طاعوناً يخشى منه كل هذه الخشية ؟

يالها من نهاية . الدكتور شاهين الحائز على أعلى الدرجات

الشرفية ، جائزة السلام ونيشان أمحوتب فى العلوم ، ودكتوراه بوليفيا .

حاول شاهين أن يفكر بموضوعيّة وبهدوء وبحياد أكثر ، وهمس فى نفسه :

– ربما كان أوكومبا على صواب . نعم .. فماذا يحدث لو أن كل من فى الارض تحولوا إلى أمواج .. وخلت الأرض من الحياة البشرية وانقرض من عليها جنس الإنسان .. وربما أخذ معه الحيوان أيضًا .. إنه الخراب الخراب .. وهى مقامرة قد تكون خاسرة ، فقد يكون الإنسان فى حالته المُوْجية غير فعّال كما هو فى حالته الجسمية الكثيفة .. قد ينتقل إلى حالة لا وعى فيها ولا إحساس ولا إدراك ولا إرادة فيصبح شبحاً .. ظلاًّ لا حول له ولا قوة ..

وهوى بيديه على حديد الباب صارخًا :

– ولكن لابد أن يجرب أحد .. لابد من وسيلة نتأكد بها .. إن العلم هو أن نعرف .. وأنا أحق الناس بالتجربة .. لا بدّ أن يطلق سراحى لأجرب .. هذه جريمة .. هذه خيانة لروح العلم .

وظلّ يدقّ القضبان الحديدة برأسه ويديه حتى نزفت جراح جبهته وانهار فى مكانه متعباً وأغمض عينيه ..

وحينما فتحهما بعد فترة ، رأى عبد الكريم واقفًا عند رأسه ،

ومعه سلّة بها لحم وخضروات .

وقال عبد الكريم :

– إن روزيتا مريضة فى المستشفى من جراء الصدمة ثم مال هامسًا على أذن شاهين :

– سوف تجد فى السلة فى داخل الخبز النوتة التى طلبتها والقلم أيضًا . اكتب لى المعادلات المطلوبة ، وشفرة الجهاز ، وسوف أقوم بنفسى بإجراء التجارب وإذاعة النظرية فى جميع الأوساط العلمية .

وفكر شاهين بسرعة . إنه يعرف أخلاق زميله وضعفه أمام إغراء الشهرة ، ويعرف فيه أيضا نزواته الشريرة .. من يدريه أنه لن يستخدم الجهاز لغير الأغراض التى قصد بها . إنها مغامرة قد تكلف ناسًا أبرياء حياتهم وأعمارهم . وتردد شاهين لحظة ، ثم قال وهو يأخذ الطعام من السلة ويعيد إلى عبد الكريم النوتة والقلم :

– لا . لن أكتب شيئاً . ربما كان من الأفضل للعالم أن يموت السر معى كما قال أوكومبا .

ثم أردف فى عصبية :

– إما أن أقوم أنا بنفسى بالتجربة ، أو أموت والسر معى . إنها مسئولية رهيبة لا يؤتمن عليها أحد .

وظهرت خيبة الأمل على وجه عبد الكريم ، وأضاف هامسًا :

- كما تريد . إنما أردت أن أخدمك .

ونظر إليه شاهين فى توسل :

- إن كنت تريد أن تخدمنى ، أطلق سراحى .

وانتفض عبد الكريم هاتفاً :

- مستحيل .. لقد أصدر مجلس القوانين الحكم بالإعدام على كل من يطلق سراحك أو يساعدك على الفرار .

- حقًّا ! ! أعيد حكم الإعدام إلى قائمة الأحكام بعد إلغائه طوال هذه السنين ؟ .. هذا احتفال طريف بشخصى الضعيف .

- لا تنس أنك بجهازك تهدد بالإعدام الجنس البشرى كله .. والحياة كلها .

- عندك حق .. لأول مرة يستخدم حكم الإعدام فى مكانه .

وأطرق شاهين قليلا ثم قال فى صوت مستسلم :

- حسناً .. لقد قبلت مصيرى .

* * *

فى تلك الليلة لم ينم عبد الكريم .

إن فكرة الخلاص من الدكتور شاهين كانت دائماً تطارده فى نومه ويقظته .

ويالها من فكرة ..

أن يتحول الدكتور شاهين إلى أمواج ويتبعثر بدداً فى الهواء .

وأن يفعل ذلك الدكتور شاهين بنفسه فيوفر عليه مؤونة ارتكاب جريمة .

وبذلك يخلو له الجو مع روزيتا .. ولاتجد روزيتا سواه أمامها . إنه الوريث الشرعى لأستاذه فى قلبها .. وستصبح من حقّه . يالها من سعادة .. أن يضمها بين ذراعيه .. ويقبلها ويتّحد بكل خلية من خلاياها .

كانت أوصاله ترتجف لذّة وهو يتخيل هذه الصور ... وكان يغمض عينيه فى نشوة يتمنى ألاّ يصحو منها .. وقال لنفسه :

- نعم .. ولماذا لا أطلق سراحه لينتحر ويريحنا ... إن الإعدام سوف يكون جزاء من يفعلها .. ولكن لا أحد سوف يعلم أنى أنا الذى فعلتها ..

وغرق فى التفكير لحظة ثم عاد يهمس :

- نعم .. هناك ألف وسيلة وألف تدبير يمكن أن يبعدنى عن مواطن الريبة .

وأراح يده على جبهته قائلا لنفسه :

- أليس كذلك ياعبد الكريم ؟

وابتسم ابتسامة شاحبة .

* * *

كان الممر الطويل ذو الأنوار الخافتة الذى يؤدى إلى عنبر ١٠ فى مستشفى (السلام) ملهماً لعبد الكريم .. وكانت الأفكار تتهافت عليه... وهو يسير ببطء وخفة يحلم بوجه روزيتا .

وأما الغرفة ٣ ب فى عنبر ١٠ وقف يدق الباب برقة . ثم دخل إلى حيث سرير روزيتا .. وركع إلى جوارها .. وأمسك يدها يقبلها .

وكانت أضعف من أن تشدّ يدها منه .

قال لها فى انفعال :

– روزيتا .. يجب أن تفكرى فى مصيرك بحكمة أكثر . . أنت متزوجة من مجنون .. من قاتل أبشع من كل القتلة المحترفين .. قاتل يريد أن يقضى على الحياة ويستأصل شأفتها . أنت تعذبين نفسك بدون مبرر . إنه لا يستحق دمعة واحدة من دموعك .

– كفى .. كفى .. أنت آخر من يقول هذا الكلام فأنت تعرفه وتعرف قلبه .. إنه رجل علْم . إنه يريد أن يعرف الحقيقة . وهذا كل مافى الأمر.. إن الحقيقة غايته ... الحقيقة عشيقته .. إنه لا يريد أن يقتل أحداً .. لا يريد أن يقتل إلا نفسه .

وانخرطت فى بكاء مر .

وقال عبد الكريم فى غلّ :

– هل تصدقين بعد هذا أنه يحبك وهو يبادر بهجرك بهذه

الطريقة الـ .. العلمية كما يقول ..

– أنا أعرف أنه لا يحبنى .. وأنه يحب الحقيقة ويعشقها أكثر مما يعشقنى .. وهذه ليست المشكلة .

– إذن أين تكون المشكلة ؟

– المشكلة أنى أنا التى أحبه .. ولا أستطيع أن أعيش بدونه . أنت لا تفهم أن الحب مازال هو الشعور البدائى الباقى بلا منطق .. فها أنت تحبنى وأنا لا أحبك .. ومع ذلك فشعورك هذا لا يقلل حبك لى أبدا بل يزيده .

– نعم ..

قالها عبد الكريم فى مرارة :

لقد وضعت يدك على الجرح . لا أمل .. إن الحب بلاعينين وبلا أذنين وبلا عقل .. إنه قدر .. قدر .

ونزلت من عينيه دمعة عصيّة .

أمسكت روزيتا يده فى إشفاق :

– ساعدنى أرجوك .. إنك تعرف عذابى لأنك تعيش فى عذاب مثله . أريدك أن تقنعه ليس بالعاطفة فهو أقوى من عاطفته .. أقنعه بالعقل والعمل أن يطرد هذه النظرية من مخّه ويؤجلها إلى حين يبلغ أقصى شيخوخته فيجريها على نفسه كما يشاء .. أقنعه بأن يكتب تعهداً بهذا إلى أكاديمية العلوم وإلى المجلس

الأعلى للقوانين . لو فعل هذا فإنهم سوف يطلقون سراحه على الفور . إنهم يعرفون جميعاً أنه رجل يفى بكلمته ، وأنه لا يكذب وعده أبدًا .

أرجوك .. عدنى ..

وقبل يدها وهو يغمغم .

– أعدك ..

* * *

ولكن كيف ؟ ..

كيف يساعدها ويضع خاتم الموت على قلبه ؟ ..

إنه يحبها .. يعبدها .. وهذا هو أمله الوحيد ..

كيف يخنق هذا الأمل ؟ .. ولحساب من ؟ لحساب غريمه .. ليعيش حتى يبلغ الشيخوخة ويصل إلى أرذل العمر ثم يصير بعد ذلك أمواجاً كما يشاء .. وربما طارت معه أيضًا .

مستحيل ..

لقد صدقت حينما قالت إن الحب هو العاطفة البدائية الوحيدة التى لا ترى ولا تسمع ولا تفهم ولا تعقل .. وأن قلوبنا مازالت على وحشيتها وهمجيتها الأولى . ولكنه اعترف لنفسه بالحيرة فى أمر غريمه .

وظل يسأل نفسه طول الوقت :

كيف استطاع أن يرتفع فوق عواطفه ؟

إنه بارد كالثلج دائماً .. يفكر فى حياد وموضوعية وكأنه عقل بحت بلا أهواء وبلا ميول . ولم يجد بدًّا من أن يقول لنفسه :

إنه رجل علم حقيق .

نعم . رجل علم حقيق .

قالها فى حسد ومرارة وحقد لافى إعجاب ومحبة ..

• • •

وحينما دخل عبد الكريم زنزانة الدكتور شاهين بعد ذلك كان قد أعد كل شىء بدقة وإحكام .

كان يحمل معه فى سلة الطعام مغناطيسًا صغيرًا ترانزستور قوته نصف مليون جاوس .. وأدوات تنكرية دقيقة تتألف من فرشاة ومحلول بلاستيكى خاص يصنع للوجه جلداً مزيفًا يشكله صاحبه كما يشاء .

وضع المغناطيس فى يد شاهين هامسًا :

– بهذا المغناطيس سوف تتمكن من جذب حلقة المفاتيح من جيب الحارس على بعد عشرين مترا .

وحينما رفع شاهين بصره متسائلا .. أردف عبد الكريم :

– اطمئن . سوف يكون الحارس نائمًا بعد وجبة مناسبة من

(الديمورين) .

– وأنت ؟

– أنا سوف آكل مع الحراس .. وسوف يجرى على ماسوف يجـــرى عليهم فأغطّ معهم فى النوم وبذلك أصبح ضحية مثلهم ولا تتجه إلى الشبهات .

– ولكن (الديمورين) مادة قاتلة إذا زادت عن قدر معلوم .

– اطمئن إلى دقتى فى الحساب .. سوف أضع القدر الكافى الذى يجعلنا نوشك على الموت ولكن لا نموت .. يجب أن يلحقنى ضرر جسيم حتى أصبح بمنجاة من أى شبهة ..

– ولكن ..

– اطمئن .. لن يزيد الأمر على علاج شهر فى مستشفى ، ثم أعود إلى صحتى .

وتردّد شاهين لحظة ثم أعاد المغنطيس إلى صديقه .

– لا .. لن أقبل منك هذه التضحية .

وقال عبد الكريم فى ثبات :

إما أن أضحى أنا هذه التضحية الصغيرة ، أو تضحى أنت بعلمك كله على مذبح الجهل والسلطة . لا تنس أنك مهدد بأن تدفن مع سرك . وربما دفن معك تاريخ من التقدم والحرية والسعادة لبنى الإنسان . ولا تنس أيضًا أنك سوف تقوم بتضحية

أكبر. تضحية هى أشبه بالانتحار.. ولا بد أن أحمل أنا أيضًا نصيبى منها.. إنه أضعف الإيمان..

إن العلم لم يتقدم بدون ثمن.. أنت تعرف أنهم جلدوا غاليليو وحرقوا برونو.. ولابد لنا أن ندفع ضرائبنا..

– صدقت.. لابدّ لنا أن ندفع ضرائبنا..

وأخذ الدكتور شاهين المغناطيس مستسلمًا فى حزن..

وقال عبد الكريم:

– وبهذه الأدوات التنكرية سوف تدخل معمل بوليفيا كأى طالب عادى.

وقال شاهين مبتسما:

– إنها ستكون تجربة من نوع جديد بالنسبة لى.. لقد كنت أحب قراءة جيمس بوند وأنا صغير..

وعلق عبد الكريم ضاحكًا:

– سوف تكون مناسبة طريفة لتنمية هذه الميول القديمة..

وضحك شاهين ساهما.. ثم مد يده إلى صديقه فى تأثر..

– إنى لن أنسى لك هذه التضحية.. وتعانق الرجلان..

* * *

كان الحراس الثلاثة يأكلون فى تلذّذ ويعلق رئيسهم ضاحكا

موجهًا الكلام لعبد الكريم :

– هذا لحم شهي جدًّا .. إني لم آكل مثله منذ سنين ..

أجاب عبد الكريم :

– لقد كلفت رئيس الطهاة بإعداده خصيصاً .

قال رئيس الحراس :

لا شك أنهم يهتمون كثيرًا بهذا السجن .

قال حارس آخر :

– هذه أول مرة يفتحون فيه السجن منذ عشرين سنة .

قال حارس ثان :

– أنا لا أفهم لماذا سجنوه ..

قال الحارس الثالث :

– إنه إنسان شديد الطيبة .

قال رئيس الحراس :

– إنهم يشيعون أنه اخترع قنبلة بدون صوت .. تقتل كل الناس وتفنى الحياة من على الأرض ..

حارس آخر :

– قنبلة بدون صوت !

رئيس الحراس :

– وبدون ضوء .

حارس آخر سائلا :

- تنفجر فى الأرض ؟

رئيس الحراس :

- لا تنفجر .. ولا تحدث أىّ أضرار بالمبانى ولا تهدم أى شىء .. و ..

- إذن ماذا تفعل ؟

- تجعل الناس يذوبون ويتحولون إلى هواء ..

- ياساتر .. أعوذ بالله ..

- ولكن لا يبدو عليه أنه شرير بهذه الدرجة .

- إنه على العكس يبدو كطفل ..

- أنا لا أصدق ..

- إنها الإشاعات .. ولكن الحقيقة لا يعلَمها إلاّ رئيس الأكاديمية والمجلس الأعلى للقوانين .

- أنا لا أفهم كيف أن قنبلة لا تنفجر ولا يخرج لها صوت ولا ينبعث منها لهب ولا دخان .. ومع ذلك تقتل الناس ..

- كل الناس ..

- هذا شىء لا يصدق ..

- إنى أشعر أحياناً أنه مظلوم ..

هذا ليس من شأننا على أى حال .. إن الظلم سوف يقع على

من ظلم .. أما نحن فلسنا سوى منفذين لأوامر .. نحن حراس ولسنا قضاة ..

وبدأ رئيس الحراس يتثاءب ، وأعقبه الحراس الثلاثة الآخرون وبعدهم عبد الكريم .

ثم بدأت رءوس الأربعة تثقل ويخرج منهم الكلام متقطعًا ، بلا معنى ، ولا ترابط ، ثم سكت الأربعة ..

وخيم الصمت تمامًا على الجميع .. ماعدا أنفاسًا تتردد بطيئة عميقة ..

ولو أن أحدًا وقف يشهد ماحدث بعد ذلك لعجب كيف أن حلقة المفاتيح خرجت من جيب رئيس الحراس من تلقاء نفسها ثم طارت فى الهواء ثم انحرفت فى مسارها داخلة زنزانة السجين ..

مثل هذه الأشياء يفهمها جيدًا عالم الطبيعة . يعرف ماذا يعنى مغنطيس قوته نصف مليون جاوس ..

أما الشخص العادى فسوف يفغر فمه دهشًا .

ولم يضع شاهين لحظة ..

فقد فتح باب زنزانته . وانطلق خارجًا .

ونظرة واحدة إلى وجهه لم تكن لتقول أبدًا إنه ذلك العالم العظيم الدكتور (شاهين تاكفور) عالم الطبيعة المغنطيسية .. فقد كان يبدو شابًا مورد الوجنتين فى الثامنة عشرة من العمر مثل أى

طالب من طلبة جامعة بوليفيا الذين يترددون على معامل التمرين .

ودخل الطالب إلى قاعة المغنطيسية .

ونشعر أنه حسن الحظ جدًّا . فالوقت وقت غذاء ، والمعمل خال تقريبًا إلاّ من عدد قليل من المحضّرين .

وبدأ يعمل فى سرعة ودقة .

بدأ فى توصيل دائرة كهربائية شديدة التعقيد ، ثم بدأ فى تشغيل المولدات العالية الجهد .

وراعى فى لحام جميع الوصلات أن تنصهر بالحرارة عند درجة معينة بعد انتهاء التجربة وتفقد معالمها فلا يعرف أحد كيف كانت هذه التوصيلات وكيف كانت هندسة الدائرة بالضبط . وبهذا لا يترك أثراً يدل على اختراعه .

وقبل أن يلمس آخر وصلة .. بادر بكتابة هذه السطور القليلة ووضعها فى مكان ظاهر قرب الجهاز .

يستطيع من يضبط جهازه على الطول الموجى للجذر التربيعى للرقم ٩٧٩,٣٣٣ ميكروسيكل أن يرانى أنا الدكتور شاهين تاكفور . فهذه الموجة بهذا الطول المعين المذكور هى نفسى أنا الدكتور شاهين فى رحلتى الأولى فى الفضاء ، وفى أول محاولة بشرية لتخطى حدود الجسد ، والخروج من الأرض ، والارتحال على شكل موجة إلى فضاء السدم والمجرات عند أطراف اللانهاية ..

سوف أكون أول عين ترى باطن الشمس ، وسطح المشترى ، وأعماق زحل ، وسوف أكون أول من ينقل لكم الرؤى من عالم الأمواج ..

وداعاً يارفاق ..

سامحيني ياروزيتا ..

وإلى لقاء أبدى فى عالم الظلال ..

إمضاء

« شاهين تاكفور »

كتب شاهين هذه السطور .. ثم لمس آخر وصلة فى الجهاز ، فتوهجت صمامات التحويل ، وسمعت صرخة فى أقصى المعمل .

صاح أحد المحضّرين وهو يشير إلى زميل يقف بجواره :

– ياإلهى .. انظر .. هناك رجل يختفى تدريجيًا كالشبح .. ويذوب ..

الفصل الرابع

كل أجهزة تليفزيون العالم تحولت على موْجة الجذر التربيعى للعدد ٩٧٩,٣٣٣ ميكروسيكل . الأنفاس فى الصدور توقفت لاهثة وهى تتابع صورة أول إنسان تخطّى حاجز الجسد وراح ينقل إلى الدنيا حكاية من عالم الأمواج ..

وتسمّرت العيون محملقةً فى الشاشات الصغيرة .

وتوقفت عجلة الحياة فى لحظة صمت مرتاع .

وتحول الملايين من البشر إلى حواس مرهفة مشحونة بالتوقع .

امرأة واحدة كان قلبها يدمى ، ودموعها تسيل محترقة كلما حملقت فى الرجل .. هى روزيتا ..

كانت تهمس وهى تنظر إليه :

– لماذا فعلتها ياحبيبى ؟ لماذا تركتنى ؟ لماذا لم تأخذنى معك ؟

كانت تتحسّس ظله باكية ..

– هل تسمعنى ؟ هل تسمعنى ؟

ولكنه لم يكن يسمع أحدًا ..

كان قد عبر الحدود إلى عالم آخر ..

وجاء صوته يتدفق بالنشوة ..

– أعتقد أنى أسير بسرعة هائلة .. فقد بلغت منطقة المريخ بين الكويكبات والمشترى فى زمن لا يذكر .. ومعنى هذا أنى أسير بسرعة تقرب من سرعة الضوء .. والسماء بالنسبة لى فوسفورية متألقة والفضاء ليس فضاء وإنما هو (ملاء) بالأمواج والشحن الكهربية وهى أشياء يمكن أن أصفها ، من وجهة نظرى ، بأنها مخلوقات وكائنات ذات ملامح وتقاطيع وشخصية .

مررت الآن بالكويكب الصغير (إيروس) .. وهو أرض قاحلة جرداء صلبة فى حجم (شبرا) عندنا ، ولكنه مستطيل كسيجار مبطط ، شكله يدل على أنه بقية من كوكب كبير تمزق منذ أجيال خلت ..

جوبتر العظيم (كوكب المشترى) يضىء من بعيد .. وهو يتألق كأنه ألف قمر ..

يبدو من حركته حول نفسه أنه سائل . فهو يتفلطح وينبعج من وسطه ..

وحوله أحزمة برتقالية مكهربة من الأيونات تشبه أحزمة (فان

ألن) عندنا فى جو الأرض ، قوته الجذبية شديدة . كنت أتمنى أن تكون معى أجهزة معمل بوليفيا لأقيسها بالضبط . ولكنى أشعر أنه يشدّنى تمامًا ، وأنه يبطئ من سرعتى ، وأنى أنحنى حول سطحه وأراه على طول المدى مياها زرقاء ممتدة إلى الأفق أشبه فى لونه بغاز الهليوم السائل .. وجزراً متناثرة من ثلج ثانى أكسيد الكربون . ورائحته نوشادرية شديدة ..

محيط بلا شطئان تعلو فيه الأمواج والمدود كالجبال .. وكلها غازات سائلة من شدة البرودة .. فوران ودفق وزبد وخضم سائل فى حالة حركة مستمرة (١٣٠٠ مرة حجم الأرض) .

انعكاس الشمس يجعله يبرق كالفضة ..

الغروب على الأفق رائع وشاعرى ..

وحزم الإشعاع تلمع فى جوّ الليل مثل أنهار من الزمرد والياقوت .

وفوق رأسى سبعة أقمار من أقماره الخمسة عشر تدور بسرعة حوله .. أكبرها (جانيميد) .

ها نحن نقترب من زحل .

وهو مثل جوبتر هائل الحجم ، يتكون من غازات سائلة .. وكثافته أخف من الماء .. وسريع الدوران حول نفسه بدرجة تجعل بطنه تكظ وتنبعج إلى الخارج من فرط السرعة .

وأنا الآن أنظر إليه من على قمره الكبير (تيتان) وهو القمر الوحيد فى المجموعة الشمسية الذى له جوّ .. جو سام من غاز الميثان للأسف .. أو يبدو أن هناك خطأ ما ، فأنا أرى حياة على تيتان أو لعلها حياة من نوع آخر . تتنفّس الميثان وتنتعش فى درجات البرودة القصوى مخلوقات كثيفة تبرق كما لو كانت من النيكل والقصدير ..

إن سرعتى الهائلة تحملنى الآن إلى القمر الثانى (ميماس) أقرب الأقمار إلى زحل . ولا شكّ أنه يصلح محطة فضائية ممتازة للملاحظة والرصد ، فهو صُلب ويتألف من جبال مدببة كالإبر ، وخال من الحياة ..

وأنا أمر بمياس الآن مسرعًا لأدخل فى العجلة المضيئة حول زحل .

عجلة غريبة من الضوء عرضها ٤٠ ألف ميل وسمكها حوالى عشرة أميال .. وتتألف من حصى ورمل وبرد معلق فى الفضاء يلمع بانعكاس الشمس عليه ويدور حول الكوكب على بعد ستة آلاف ميل من سطحه وهذه العجلة من الفتات المتبقى من ثلاثة أقمار تمزقت حينما اقتربت من نطاق جاذبية الكوكب ، وهى مازالت تمطر الكوكب بمطر منهمر من الشهب والنيازك .

ولا شك أن الحياة على الكوكب بالنسبة لحالتنا البشرية سوف

تكون مستحيلة ، وإن كنت أرى أشباحاً لا حصر لها تسبح فى غازاته السائلة ، لا تمتّ إلى صورتنا البشرية بصلة ، وربما كانت أنواعا منحطة من التموجات .

سرعتى تحملنى الآن خارج المجموعة الشمسية .

ولكنى أتوق إلى رؤية الشمس والنزول إلى باطنها قبل أن أبرحها إلى أطراف المجرة . ولا بدّ أن أتسارع عائداً من حيث جئت ..

إن التسارع خاصيّة غريبة ، وقدرة كامنة فى الحياة المَوْجية لا علم لكم بها فى معامل الأرض .

أنا أكتشفها الآن فى نفسى لأوّل مرة .

ومعنى هذا أنى أستطيع أن أرفع سرعتى بإرادتى الحرة ، وأتجاوز بها سرعة الضوء ، وهى استحالة مطلقة فى نظر أينشتين .

أن تكون هناك سرعة أعلى من سرعة الضوء محض استحالة . فسرعة الضوء هى سقف المعرفة فى نظر الرياضيات الفلكية الأرضية . هكذا كنا نتعلم .

ولكن هذا غير صحيح ، فها أنا أشعر أنى أتسارع مقترباً من حافة سرعة الضوء .

وحينما أتجاوزها سوف أفقد إحساسى بالزمان والمكان تماماً ، وسوف أدخل نطاق الأبدية واختفى كصورة من على شاشاتكم ، حيث لن أعود موجة الجذر التربيعى ٩٧٩,٣٣٣ وإنما سأكتسب

حالة جديدة يستحيل استقبالها بأجهزتكم المعروفة ، حالة شديدة الشفافية ..

وكانت صورته تشف بالفعل تدريجيًّا على شاشات التليفزيون .

ثم اختفت تماماً .

وأغمى على روزيتا .

وحدث هرج وذعر بين المشاهدين فى كافة أنحاء الكرة الأرضية .

ألن يعود الدكتور شاهين إلى الظهور؟

ماذا يعنى التسارع ؟ وماذا يعنى تجاوز سرعة الضوء ؟

وهل يوجد عالم آخر من اللازمان واللامكان بالفعل .. وماهى صورته إن كانت له صورة ؟

إن الدكتور شاهين الآن يخترق هذا العالم .. ولكنه صمت تماماً واختفى ..

ومعنى هذا أن الاتصال على المستوى المادى الآلى مستحيل بين العالمين . هل هذه هى الآخرة ؟ ..

ومامعناها ؟ ..

الثواب والعقاب ؟ أم محض الانتقال ؟

أم النشوء والارتقاء بالمعنى المؤجى ؟

وإلى جوار روزيتا جلس عبد الكريم يمسح على جبهته فى

اضطراب ..

إن المعانى الدينية تؤرقه ..

والإحساس بأن هناك عدالة سماوية لا يفـوتها ذنب مذنب يفزعه .. فهو يشعر بأنه قاتل . وربما كان فى الواقع قد أرسل صديقه إلى حياة أنبل وأجمل .. ولكن فى حقيقة ضميره كان يفعل هذا على أنه قتل وإبعاد .

وعلى مستوى الضمير والنية هو قاتل .. ومصيره جهنم إذا كانت هناك جهنم ..

فإذا لم تكن جهنم .. وإذا كانت رحلة الحياة فى الدنيا والآخرة هى رحلة نشوء وارتقاء وتطور .. فإنه قطعًا سوف يتطور ببطء وتثاقل .. وربما ظل يعاشر الأمواج المنحطة على زحل أجيالا طويلة يشاركها حياة الغرق فى الغازات السائلة مفرطة البرودة ..

وغلبه حبّه فنسى كل شىء .. إلاّ أنه مع روزيتا .

فليذهب كل شىء إلى الجحيم ..

وفتحت روزيتا عينيها وغمغمت باكية .

– لقد ذهب .. ذهب .. لن يعود .

– كفى جنونًا ياروزيتا .. أنت تتكلمين عن شبح لا وجود له ، أنت تربطين حياتك بعدم ..

– لقد كان أمامى .. لقد كان يملأ سمعى وبصرى بنبراته الحلوة

وصورته المتألقة . لماذا حرمنى حتى من صورته ؟ لماذا حرمنى حتى من أن ألمس ظله ؟

– أنت تمسكين بالهباء .. أنت تحتضنين خواء . إن معانى الحب لم تخلق لتمنحها للفراغ ..

– إنه ليس فراغاً ..

– روزيتا .

– ليس فراغاً مايملأ قلبى وروحى ..

– ولكن .. أنا ، أنا ياروزيتا ، أنا الذى أجلس بجانبك ، ملء سمعك وبصرك وإحساسك .. أنا .. أين مكانى ، ألا أملأ عليك ذرة من قلبك ؟

روزيتا – (كأنها لا تسمعه) :

– أتظن أنه سوف يعود ؟

(فى ثورة وقد نسى نفسه) :

– لو عاد فإنى سوف أقتله .. سوف أحطم هذه الشاشة لو ظهر عليها ثانية ..

روزيتا – (مبهوتة) :

– عبد الكريم ؟ ..

انهار إلى جوارها :

– نعم ياروزيتا .. لقد جننت .. إنى أشعر أنى أصبحت باهتًا

أكثر بهتانا من ظلّ ، وأكثر تجرّداً من شبح .. أشعر أنى أصبحت مجّوفًا من الداخل ، مفرغًا أكثر من خواء .. وإنه لإحساس فظيع ..

ونكس بصره فى الأرض خجلاً وهو يتمتم :

– لماذا أحبك كل هذا الحب .. لماذا أحببتك ؟

– (تغنى فى واديها) ولماذا أحببته أنا ؟

– لماذا لا تجمعنا تعاستنا على حب أو حتى على إشفاق ؟

تحسست روزيتا جبين عبد الكريم :

– إن قلبى ملؤه الإشفاق عليك ..

– يا ليديك الجميلتين .. إن لهما لمسة كالجنة .. لا تتركينى ياروزيتا ..

وجاء صوت الدكتور شاهين عبر الأثير وعادت صورته تتألق على الشاشة .

أنا أقترب الآن من كوكب فينوس (الزهرة) . وكان لا بد أن أتثاقل حتى أعود إلى حالة الجذر التربيعى ٩٧٩,٣٣٣ ميكروسيكل ، حيث يمكن متابعتى بأجهزتكم ، ولم يكن هذا التثاقل سهلاً . فالحالة الأبدية وأنا أسميها (الحالة الثالثة للمادة) .. هى من السحر والإغراء واللذة بحيث يصعب ويستحيل أحيانًا مبارحتها . إنها أشبه بحرية مطلقة .. وانعتاق كلّى .. وأنا أفهم الآن

لماذا لا يعود من يموت إلى الأرض .. ولماذا ينسى حياته الأولى وما فيها .. إنه يعبر حاجز الوجود المحدود إلى حالة من اللازمان واللامكان .. حالة من الكلّية والانتشار والجمال تتضاءل إلى جوارها كل الذكريات ..

ولا يمكن أن أصف هذه الحالة الثالثة للمادة .. فأنا لا أجد لغة مشتركة أصفها بها .. إنها حالة لا توصف وإنما تعاش وتعانى ..

حسناً فلنعد إذن إلى ما يمكن أن نفهمه نحن الاثنين .. لنعد إلى عالمنا الفلكى المشترك ..

إنى أدخل الآن فى جو الزهرة الكثيف . وهو جو بارد يشبه شتاء كندا ، ويصل إلى ٦٠ درجة تحت الصفر .. ويتألف من غاز ثانى أكسيد الكربون ، وبخار الماء ، ويبلغ ألوف الأميال فى كثافته ، وتحت هذا الغلاف الجوى السميك توجد أرض شديدة السخونة تشبه أرضنا حجماً وجاذبية وكثافة .. وأعتقد أنه إذا أمكن تمزيق الغلاف الجوى السميك بقنبلة النيوترون (الاقتراح الذى اقترحه العالم التركى عصمت آغا) فإن درجة حرارة سطح الكوكب ستنخفض لدرجة تسمح بنمو الحياة النباتية على سطحه . وبالإمكان فى خلال سنوات قليلة أن يتحول فينوس إلى الجنة الاستوائية الموعودة ..

ولا شك أن كوكب فينوس هو مهجر مناسب جدًّا حينما تبرد

الشمس وتصبح أبرد من أن تلائم الحياة البشرية .. ولهذا أرى البدء في تفجير جوّه وإعداده من الآن لهذه الهجرة الوشيكة ..

وبعد لحظات من هذا التصريح كان أوكومبا رئيس أكاديمية العلوم يعطى أمرًا بإطلاق قنبلة النيوترون فى اتجاه كوكب فينوس ..

وسمع صوت الدكتور شاهين يقول :

- شكرا ياأوكومبا على ثقتك .. لقد بادرتم بالفعل بالأخذ برأيى . وهأنذا أرى الصاروخ الذى يحمل قذيفتكم خارجًا من غلافكم الجوى الأرضى . وهو يسير ببطء بالنسبة لى .. يسير ببطء عربة كارو محمّلة بالدبش يجرها حصان عجوز منهك القوى . بعد أيام سوف ترون منظراً رائعاً حينما ينفجر غلاف فينوس الجوّى ويتمزق .. اضبطوا تلسكوباتكم البصرية من الآن وتلسكوباتكم اللاسلكية أيضًا .. لن أستمتع بهذا المنظر . وسوف أكون قد بارحت المجموعة الشمسية والمجرة كلها بوقت طويل بحساب البطء الشديد الذى تسير به قذيفتكم السلحفائية ..

أعتقد أنه سيحدث النمو وستقوم الحياة على سطح فينوس تلقائيًا بدون نقل أى حياة من على الأرض . بالفعل التنشيطى لإشعاع النيوترون وبتمزق الغلاف الجوى العازل الذى يحفظ الكوكب ساخنا فى درجة الغليان ..

إنى أتسارع الآن مقترباً من الشمس ..

وأصل إلى عطارد .. أقرب الكواكب إلى الشمس .. وهو أصغر من الأرض بثمانى عشرة مرة وله وجه ملتهب بواجه الشمس . وتسيل فيه أنهار من الرصاص المنصهر .. ووجه آخر بعيد عن الشمس غارق فى الظل وبارد على الدوام .

وهو يدور حول الشمس بسرعة كزنبور مجنون ويكمل السنة فى ٨٨ يوما .. ويدور حول نفسه ببطء شديد فيكمل اليوم الواحد فى سنة . . . .

وبقدر علمى .. لا أرى حياة على سطحه ..

أشعر الآن أنى أتسارع أكثر مندفعا نحو الشمس ، وإذا استمر هذا التسارع فسوف أعبر حاجز الضوء وأنتقل إلى الحالة الثالثة وأختفى من على شاشاتكم ..

ولن أظننى سوف أستطيع بعد ذلك العودة إلى الحالة الثانية (الموجات) حيث يمكن أن أتصل بكم ..

إن قوى الجذب الهائلة للشمس هى التى تشدّنى هذه المرة مؤدّية إلى هذا التسارع الهائل .. إنها أشبه بيد الصياد القوية تمتد لتتلقّف السهم الذى أفلت منها .

وأنا أشعر شعور العائد إلى المنبع .. ومعى معاشر من آلاف مؤلفة وملايين لا تعدّ من الأمواج تتسارع فى حنين إلى النور ..

إن كل ماتعلمناه عن النار وعن العشرين مليون درجة حرارة فى

باطن الشمس .. تلك الدرجات التى كنا نرتجف ونحن نسمعها .. كانت خيالا قاصراً .. هذه الدرجات القصوى هى الحياة .. قمة الحياة .. وذروة الفعل الخالص ..

فى باطن الشمس .. لا شىء يحترق ..

وإنما هناك ذروة الفعل والانفعال هنالك النور ..

هنالك يتوتّر القوس بأقصى طاقته .. ليطلقنا نحن السهام الصغيرة من قيودنا ويرسلنا محلّقين فى اللازمان واللامكان مهاجرين فى شوق إلى المطلق ..

نعم فانا أرى الآن فى يقين أن الله موجود .. بل هو الحقيقة الوحيدة التى غابت عنا جميعا فى غرور التقدم المادى ولا أمل لى فى النجاه .. إلا بمغفرة ..

وداعا ياروزيتا وشكرا على مساعدتك ياعبد الكريم ..

وبالأحضان أيتها الرحمه

واختفى صوت شاهين واختفت صورته .. هذه المرة إلى غير عودة ..

وتجمّد وجه روزيتا كتمثال من الصدمة ..

وأخفى عبد الكريم وجهه فى يديه .. وقد شعر أنه افتضح ..

الفصل الخامس

استمر الحداد على الدكتور شاهين ثلاثة أيام .

ورفعت الأعلام السود فى كل مكان .

واستولى الوجوم على كل قلب .

واستولى على عبد الكريم شعور مؤرق بأنه يسير عريانًا .. وأنه كالخطيئة التى خلعوا عنها قناعها . إن كل واحد يعرف الآن أن عبد الكريم هو الذى فعلها .. هو الذى قتل الدكتور شاهين .. هو الذى جعل الدكتور شاهين يختفى ومعه سرّ اختراعه .. وربما ستمر أحقاب وأجيال قبل أن تضع الإنسانية يدها مرة أخرى على هذا السر .. وربما لن تصل إليه أبداً ..

وروزيتا تعلم الآن أنه هو الذى حرمها من حبها الوحيد . وهى لن تغفر له . والمجلس الأعلى للقوانين ينتظر منه أن يتقدم ليعترف . ورئيس الأكاديمية أوكومبًا .. أرسل فى طلبه .

إنه محاصر .. محكوم عليه ..

وهو جبان .. أجبن من أن ينتحر .. وأجبن من أن يواجه تهمته .. وهو يكتوى لأول مرة بعذاب النفس .

لقد قالت له روزيتا ذات ليلة أن لا شيء يطهر النفس كالعذاب .

وهو لم يكن يفهم لهذا الكلام معنى .

ولكنه الآن يعلم .. مامعنى أن يتعذب .. ومامعنى أن يحترق حتى يتطهّر ..

إنه ليتساءل دهشاً فى فحمة الليل .

كيف امتلأ قلبه حقداً وكراهية باسم الحب ..

هل كان حبًّا أم أنانية .. أم شهوة .. أم نزوة ؟

أكان يريد روزيتا لنفسه حقاً أم أن كبرياءها ونقاءها هما اللذان حركا فيه شهوة امتلاكها ؟

لقد كان يريد أن يكون زوجها الثانى ليذل نقاءها وليحرمها من عذرها الوحيد فى الحب وحجتها الوحيدة فى الوفاء ..

كانت كلمة حبّ .. تؤذيه ، وكلمة وفاء .. تجعله يشعر فى أعماق نفسه بالوضاعة .

كانت راحته الوحيدة فى أن يرى كل الناس مثله .. لا حب عندهم ولا وفاء ، وإنما مخلوقات تحركها ضرورات الجوع والخوف

واللذة ..

إن العالم النفسانى (ليوبوف) لم يكن على صواب حينما قال إن المشكلة أن إنسان العصر مازالت عنده طاقة عنف فى حاجة إلى مخارج طبيعية لتصريفها ..

فهناك ماهو أخطر من العنف ..

إن الناس لا يحبون بعضهم بعضاً بما فيه الكفاية ..

وهم حينما يبدون الحب يخفون الحسد . وحينما يظهرون الشفقة يخفون الحقد . وزوال الطبقات ، والمساواة فى الفرص ، وتيسير الغذاء والكساء والدواء ، والضمان الاجتماعى فى العجز والشيخوخة ، لم يحقق المساواة بعد . فمازالت هناك فروق نولد بها .. وتحت إهابنا نخفى نفوسًا متباينة القوة والضعف ، متباينة الذكاء والغباء . الخامل والعبقرى .. الخبيث والطيب .. حتى بعد أن تشابهت الوجوه والملامح والتقاطيع .. من طول مااختلطت وتزاوجت الأجناس المختلفة .. مازلنا مختلفين .. مازلنا كما تقول روزيتا .. صُفراً وسوداً وحمراً وبيضاً ..

وهو اختلاف فى جوهر الخليقة ..

ولابد أن نقبله بالمحبة الكافية .. وبالروح الرياضية الضرورية بلا حقد وبلا حسد .. إذا كان لابدّلنا أن نبلغ التكامل الخلقى المطلوب .

كان عبد الكريم يفكّر .. وكان يعانى لأول مرة عذاب النفس فى إدراك ذاتها ..

١ مارس سنة ٢٠٦٧ .

اعترف عبد الكريم بما فعله أمام مجلس القوانين .. وطلب أن يكون عقابه كريماً ومتناسباً مع مكانته العلمية .

قال إنه يريد أن يتعذّب عذابًا يفيد الناس حتى لا يكون عقابه مجرد انتقام .

وقال إنه قام بتصميم صاروخ يسافر إلى كوكب المشترى بدون أن يحمل مئونة . مستخدمًا بذلك نظرية التبريد الشديد لدرجة الصفر المطلق .. وهى الدرجة التى تتوقف فيها جميع عمليات الجسم الحيوية فلا يعود يحتاج إلى غذاء أو هواء ..

وبالتدفئة التدريجية يمكن إعادة الحياة إلى الجسم عند وصول الصاروخ إلى المشترى بعد ستة شهور من السفر فى الفضاء .

وقال عبد الكريم إن الوصول إلى المشترى أصبح ضروريًا بعد أن اتضح أن البروتوبلازمة الحية الجديدة التى صنعها الطبيب الاسترالى (لاج) فى المعمل .. تعيش وتتناسل فى بيئة مفضلة من محلول النشادر وجو ثانى أكسيد الكربون وفى درجات البرودة القصوى ..

وهى نفس الظروف المعيشية فى كوكب المشترى .. حيث الكوكب كله من غاز ثانى أكسيد الكربون والنشادر السائلين.

وأنه لو وضع هذه البذرة الجديدة فى المشترى .. فسوف يضعها فى أرضها وبيئتها.

وقال فى ختام اعترافه إن أقلّ مايقدمه مقابل ضياع حياة الدكتور شاهين هو أن ينقل الحياة للكوكب الميت الذى خلا من كل حياة (جوبتر).

وطلب من أكاديمية العلم أن تمنحه شرف هذه التضحية .. فى أن يكون أوّل من يحمل مشقّة هذه الرحلة .. وأوّل من يضع بذرة الحياة على وجه جوبتر..

وقد وافق أوكومبا على طلبه ..

ولكن ماحدث من اكتشافات الدكتور شاهين كان قد غير عقول الناس .. ولم يعد أحد يعبأ بالصواريخ والقذائف والأقمار..

كتبت جريدة (القاهرة) تحت عنوان (الحالة الثانية للمادة): إن هذه الصواريخ أصبحت كلعب الأطفال إلى جانب الكشف الهائل الذى كشفه الدكتور شاهين عن إمكان تحلل الجسد إلى المكافئ الموْجى له .. وعن إمكان حياة هذا المكافئ الموجى حياة

العقل المجرد والإرادة الحرّة حيث يمكن أن يسافر الإنسان بهذه الحالة الثانية للمادة عبر متاهات الفضاء ليصل إلى الكواكب فى دقائق وثوان دون أن يخشى برودة أو حرارة ودون أن يحتاج إلى غذاء يأكله أو هواء يتنفسه ..

وكتبت جريدة (العلم الجديد) تحت عنوان (التسارع والحالة الثالثة للمادة) تقول : إن كشف الدكتور شاهين لظاهرة التسارع قد حطم كل مقولات العلم القديم . فالضوء لم يعد سقف المعرفة .. وسرعة الضوء لم تعد الحدّ الأقصى لجميع السرع . وبإمكان الإرادة الحرة فى صورتها الموجية أن تحقق التسارع الأقصى الذى يحملها عبر حافة الضوء ويتجاوز بها سرعته التقليدية (١٨٦٠٠٠ ميل / ثانية) لتتخلّص نهائيًّا من حدود الزمان والمكان .. وتصل إلى الحالة الثالثة للمادة ، وتحقق بذلك انعتاقها الكلى ، وحريتها المطلقة ، وتبلغ اللازمان واللامكان والخلود ..

وبدأ الرأى العام يضع العلماء أمام ضرورة العثور على سر اختراع الدكتور شاهين ..

وانقطع علماء معهد بوليفيا فى محاولة محمومة لتقصّى هذاالسر بالحدس والتخمين والتجربة والاستجواب الدقيق لكل من عرف أو شاهد الدكتور الراحل وهو يقوم بتجربته ..

ولكن الليالى الطويلة من السهر والتفكير والتجارب المضنية

انتهت إلى لا شيء ..

لقد انسدل ستار على الحقيقة ..

ومات السرّ مع صاحبه ..

ولم يشأ صاحبه لحكمة فى نفسه أن يبوح به قبل أن يرحل إلى عالمه الآخر. لقد آثر أن يترك الجميع فى ذهول، وقد تقازمت أمامهم عظائم الاختراعات فأصبحت صواريخ النيوترون التى تسير بنصف سرعة الضوء مثل عربات الكارو المحملة بالدبش تجرها خيول منهكة .. مجرد سلاحف لاهثة بطيئة ..

أراد ذلك العالم أن يقضى على غرور العصر وكبريائه .. ويفتح القلوب على إحساس علمىّ صادق بالسماحة والتواضع ..

وكانت المراصد كل يوم تسجل مسار قنبلة النيوترون المرتحلة إلى فينوس، وكانت مازالت هناك شهور باقية قبل أن تصل القنبلة إلى غايتها ..

ودخل الكل فى جدل علمى .. وكالعادة أنستهم التفاصيل حقيقة كبرى أطلقها الدكتور شاهين .. أن الله موجود .. هل نسوا أو تناسوا .. أو أعمتهم الحياة المادية التى غرقوا فيها من جديد.

كتبت جريدة (المادية الجدلية) إن ما قاله الدكتور شاهين يعد انتكاسة مخجلة للفكر العلمى ..

وقالت فى مقالها : إن الدكتور شاهين فقد عقله وأصابه الخبال
وأن كلامه عن الله ترهات صوفية .

وفى ١٠ مارس سنة ٢٠٦٧ ..

دخل عبد الكريم غرفة التبريد فى الصاروخ الذاهب إلى جوبتر
بعد أخذ حقنة مخدرة خاصة ..

وبدأ التبريد بتبخر الغازات السائلة فى مجال مغنطيسى قوى ..
وأخذت حرارة الغرفة فى الانخفاض تدريجيًّا :

صفر ..

١٠ تحت الصفر

٢٠ تحت الصفر

٣٠ تحت الصفر

٤٠ تحت الصفر

٥٠ تحت الصفر

كل ماشعر به عبد الكريم هو شعور كالحلم
أنه ينام على ضباب من الثلج المندوف ..
وإن إحساسه يتبلّد شيئاً فشيئاً ..

وبدأ يغطّ فى هذه البلادة .. أخيرا لم يعد يحب .. لم يعد
يكره .. لم يعد يتألم .. لم يعد يفرح !

وعما قليل يدخل فى مرحلة (شبه الموت) حيث ينعدم كل شعور

نهائيًا .. وتنعدم كل مطالب الجسد والروح والقلب ..

لا جوع ولا عطش .. ولا روزيتا .. ولا الدكتور شاهين ..
لا شيء على الإطلاق .

٧٠ تحت الصفر ، ١٢٠ تحت الصفر ، ١٩٠ تحت الصفر .
٢١٥ تحت الصفر ٢٧٣ تحت الصفر .

بلغ الصفر المطلق .. أبرد درجة فى فضاء الكون .. الدرجة التى تسكن عندها الذرات .. ويسكن ألمه ..

وفى قارورة صغيرة .. استقرت بضعة من بروتوبلازمة حية .. هى بذرة الحياة الجديدة التى ستوضع فى تربة « جوبتر » لتبدأ مخاض آلام جديدًا على الكوكب النائى .. وتتبعت الصحف العالمية رحلة الصاروخ بحماس شديد .. ونسى الكل كل شىء عن الله وغرقوا فى تلك الحمى المادية العلمية من جديد ..

٢٠ مارس سنة ٢٠٦٧ ..

دلت التحليلات للإشارات التى ترسلها الأجهزة الأوتوماتيكية المركبة فى جسم عبد الكريم .. أن عبد الكريم قد مات بالفعل .. وأنه لن يمكن بعثه .. وأكدت المحاولات الأولى لإعادة الدفء إلى جسده .. إنها محاولات مع جثة انتهى أمرها .

وقال أوكومبا فى أسف :

لقد كان يريد أن يموت ..

وكتبت جريدة (الفلك الحديث) تقول :

إن الأقمار التى تدور حول جوبتر سوف يصبح عددها ثلاثة عشر قمرًا .. أما القمر الثالث عشر فهو كفن عبد الكريم الذى سيصل إلى فلك الكوكب بعد شهور ويستقر دائرًا فيه إلى الأبد ..

لقد أراد عبد الكريم أن يحمل بذرة الحياة إلى الكوكب فلم يحمل إليه سوى كفنه ..

أما روزيتا فقد كانت تقرأ هذه الأخبار والمقالات والأعمدة الطويلة وعلى شفتيها دائمًا ابتسامة شاحبة .. كانت تشعر بالدهشة ..

لماذا يفكر الرجل فى الكواكب والنجوم ؟

لماذا يرتحل مهاجرًا ليكتشف له مسكنًا على بعد ملايين وملايين الأميال ، وهو لم يكتشف بعد عشه الصغير على الأرض ..

وهذه الآلات المعقدة .. والماكينات .. والمصانع ..

والمداخن .. التى تحجب وجه الشمس ، وتلك الأنابيب والمواسير والمحركات التى تكيف الجو وتنزل المطر وتمحو الرطوبة ، والصانع العظيم الذى صنعها لا يعرف كيف يكيّف قلبه ولا كيف يرّطب روحه ..

لماذا لا يفكر أحد فى ذرة محبّة ؟ كما يفكر الكل فى كل مكان فى

ذرات الحديد والنحاس واليورانيوم .. كانت تنظر إلى السماء قائلة فى عتاب :

– لماذا سكنت السماء ياحبيبى ؟ وقلبى أكثر اتساعا لك .

لماذا لم تدرك بعلمك العظيم أن مجال المحبة أقوى من مجال أى مغنطيس .. وأقوى من مجال أى نجم وأى كوكب ؟

وأن مجال المحبة هو الذى أعطى لهذه الأشياء المادية مداراتها وحفظها فى أفلاكها ؟

وكانت تبكى فى صمت وهدوء كلما تطلعت إلى السماء وتهمس .. ياإلهى .. خذنى إلى حبيبى ..

أريد أن ألقاه لأحادثه وأهمس فى أذنه .. فإن هذا العالم العظيم ، مكتشف الحقيقة ، لم يكتشف أنوار قلب امرأة كانت تعيش بجواره ..

وفى لحظات السلوى والعزاء حينما كان الجنين يتحرك فى أحشائها .. كانت تتلمّس مواطئ قدميه الصغيرتين بأصبعها هامسة :

– ياسيد الكل .. ياساكن الغيب .. ياساكن ظلمة المستقبل .. متى تخرج لتقول لهم أن ينظروا لحظة إلى داخل نفوسهم بدلا من أن يوجهوا مناظيرهم إلى متاهات الفضاء ..

تقول لهم ، إنه من الداخل يخرج كل شىء ..

من الداخل خرجت أنا ..

وربما أيضًا خرج ذلك الكون العظيم الذى أفقدكم العقل ..

وكانت تسجد وتصلى وتبكى

كانت الوحيدة فى عالم الكفر التى صدقت وآمنت أن الله موجود ..